مقام الصالحين
في القرآن الكريم

«المرأة نموذجاً»

دار الولاء
لصناعة النشر
الرويس، شارع الرويس، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com
P.O. Box: 307/25 | www.daralwalaa.com

ISBN 978-614-420-408-5

مقام الصالحين في القرآن الكريم

«المرأة نموذجاً»

المؤلف: هلال بن حسن بن علي اللواتي العماني.

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر.

الطبعة: الأولى بيروت_لبنان ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

إخراج فني وتنفيذ:

eight
press & production

www.8eightproduction.com | 00961 3 017 565

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

هلال بن حسن بن علي اللواتي العماني

مقام الصالحين في القرآن الكريم

«المرأة نموذجاً»

دار الولاء
لصناعة النشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

هذا البحث ١١

المقدمة ١٥

التمهيد ١٥

تحرير محل النزاع والإختلاف ١٦

إلى حلّ النزاع ١٩

ولكن ٢١

البحث عن السبيل الموضوعيّ ٢٣

إلى سبيل الأصل الموضوعيّ ٢٦

تحقّق المرجعيّة الموضوعيّة ٢٩

عوداً على بدء ٣٢

المرأة في المصادر الإسلاميّة ٣٥

الفصل الأوّل: المرأة في القرآن الكريم ٣٩

إلى معرفة الضابطة العامة ٣٩

المحور الأوّل: الحديث عن الإنسان بما هو إنسان بغضّ النظر عن جنسه ٤٠
المحور الثاني: الحديث عن الإنسان بما هو رجل أو بما هو امرأة ٤١
المحور الثالث: الحديث عن الصفات الإنسانيّة من الفضائل والرذائل ٤٥
إختيار طريق البحث ٤٨
معرفة مكانة المرأة وحقوقها في القرآن الكريم من خلال المحور الثالث ٤٨
الفصل الثاني: صفة «الصالح» منصب أم مقام؟! ٥٣
معنى الصلاح ٥٣
الفرق بين الاتّصاف والتلبّس (التحقّق) ٥٥
المرتبة الأولى: مرتبة الحال ٥٥
المرتبة الثانية: مرتبة المَلَكة ٥٦
المرتبة الثالثة: مرتبة التحقّق ٥٧
صفة «الصالح» في القرآن الكريم مقام وليست منصباً ٦١
معنى المقام ٦٢
الطائفة الأولى من الآيات ٦٣
الطائفة الثانية من الآيات ٦٥

الطائفة الثالثة من الآيات ٦٦
ملحوظة مهمّة لدفع سؤال محتمل ٦٧
لفتة قرآنيّة جميلة ٧٢
البشريّة دليل الاشتراك والإمكان ٧٥
المحصّلة ٧٦
إنسداد الباب أم فتحه ٧٦
«النبوّة» و«الصالح» ٧٧
المنصب والمقام ٨٠
الشواهد القرآنيّة ٨٢
الطائفة الأولى من الآيات: الرغبة والدعاء ٨٣
الطائفة الثانية من الآيات ٨٤
الطائفة الثالثة من الآيات ٨٥
الطائفة الرابعة من الآيات ٨٧
الطائفة الخامسة من الآيات ٨٨
المحصّلة ٩٠

الفصل الثالث: موقع المرأة في مقام الصالحين في القرآن الكريم .. ٩١
مقام الصالح اختصاص أم شمول ٩١
نموذجا التكوين ٩٢

الشواهد القرآنيّة ٩٩

الشواهد القرآنيّة ١٠٣

المرأة والدعوة الإلهيّة إلى العمل الصالح ١٠٦

الشواهد القرآنيّة ١٠٧

شموليّة خطاب العمل الصالح والإيمان ١٠٩

الشواهد القرآنيّة ١١١

الإيمان والعمل الصالح يقود إلى مقام الصالحين ١١٢

الوجود خير دليل على إمكانه ١١٣

الفصل الرابع: المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم .. ١١٥

ملاك المساواة ١١٥

مشروع الإنسان الكامل.. الغاية ١١٦

الآيات المصرّحة بالتساوي ١٢١

التسابق تجلّي التساوي ١٢٢

تطبيق الأمر على الدستور الإلهيّ ١٢٤

القرآن الكريم يكشف عن منح القابليّات للرجل والمرأة وبشكل متساوٍ ١٢٧

الحركيّة والدافعيّة للعناصر الأربعة ١٣٩

التحفيز للوصول إلى الهدف ١٤٤

الفصل الخامس: الإشكال والتساؤل حول المفردات القرآنيّة ... ١٤٧
قاعدة رئيسيّة ١٤٧
تساؤلات مهمّة ١٤٩
خطة البحث ١٥٠
محوريّة المساواة وانسجام المفردات ١٥٠
الآيات الظاهرة في التفاضل بلحاظ الكمّ ١٥١
البحث في كيفيّة الانسجام ١٥٢
المقدمة الأساسيّة: الفارق التكوينيّ الطبيعيّ ١٥٣
الفصل السادس: الحقّ الاجتماعيّ ١٧١
مقدّمة مهمّة ١٧١
الاختلاف والتوزيع العادل في الحقّ الاجتماعيّ ١٧٢
المساواة المطلقة أم المقيّدة ١٧٥
توزيع المهام والعدالة ١٧٩
مدخليّة انتخاب التكوين الطبيعيّ في توزيع المهام ١٨١
الادارة الإلهيّة للموارد البشريّة ١٨٢
التمييز أو التمايز في توزيع المهام ١٨٥
القرآن الكريم وإدارة توزيع المهام ١٨٦

الخاتمة ١٨٩
الوقوف على المسائل التشريعيّة ١٨٩
الشبهات الموجّهة إلى الإسلام والقرآن ١٨٩
ملاحظة عامّة حول الإشكالات الواردة ١٩٢
خاتمة البحث ١٩٣
مصادر الكتاب ١٩٥

هذا البحث..

يمتدُّ زمن طرح هذا البحث إلى سنة ١٩٩٨م حيث طُرِحَ على شكل محاضرات متسلسلة في إحدى المراكز الإسلاميّة في أوكلاهوما- الولايات المتحدة الأمريكيّة، والحمد للّه استطاع أن يَحُلّ مجموعةً من الإشكالات التي كان البعض يحملها في ذهنِهِ من الرجال والنساء بحكم ما هم فيه من الوضع الاجتماعيّ في الولايات المتحدة الأمريكيّة، وهو أمر طبيعيّ تحت ظلّ تلكم الأجواء الاجتماعيّة الخاصّة، وفي مثل هذه الدول ذات الطابع الثقافيّ والفكريّ الخاصّ بها.

ومن ثمَّ بدأتُ بطرح هذه الأُطروحة في ولايات أُخرى من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وفي مختلف المراكز الدينيّة والثقافيّة، وبحمد اللّه كانت الأُطروحةُ تزدادُ قوّةً بقوّة الإجابة على الأسئلة العديدة التي كانت تُطرح من مختلف فئات المجتمع، ومن مختلف أطيافه، الأمر الذي زادني قناعة بأهميّة نشر هذه الأُطروحة، لتعمّ الفائدة للجميع.

وكان السبب وراء ولادة فكرة هذا المشروع هو ورود تساؤل في الذهن.. أَيمكن للمرأة أن تصل إلى درجات عالية من الكمال الممكن أم لا؟، وإذا كان كذلك فكيف؟، وهل هناك نماذج رائدة في هذا المجال لتثبت الإمكانيّة أم لا؟.

والعلّة التي كانت وراء طرح مثل هذه التساؤلات هي ما كان يتفوَّه به البعض جهلاً أو إشتباهاً أو غفلةً أو لغرض ما عن موقع السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام ومكانتها في سلسلةً المعصومين الأنبياء والرُّسل والأوصياء عليهم السلام، فهل هي حقّاً لها منزلةٌ فوقَ منزلةِ خلفاء اللّه في الأرض دون النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أم لا؟، وإذا كان كذلك فهل هناك ما يُثبت؟.

ومن الطبيعي أن أتوجَّهَ إلى النصوص الشريفة التي أمامنا، فكان التوجُّهُ أوّلاً إلى كتاب اللّه عزَّ وجلَّ، فبدأْتُ بالبحث عن مكانة المرأة في القرآن الكريم، وكيف تعامل معها هذا الكتاب العزيز، وما هي نظرة القرآن الكريم إلى المرأة، فاستوقفتني عدّة آيات قرآنيّة وبدهشة شديدة، إلى أن قرَّرتُ المضيَّ بطرح الأطروحة من خلال البحث في مفهوم واصطلاح «الصالح والصالحين» في القرآن الكريم، لأنه بحث ذو صبغة «المفتاح» الذي يفتح كلّ أمر يكثر فيه تساؤل حول مكانة المرأة في الإسلام، ولأنّه بحث ذو الصبغة «القاعديّة المبنائيّة» التي تتأسَّس عليها الكثير من المباني الفكرية والعلميّة المختصّة بالمرأة، ووجدت في النصوص الروائية ما يدعم هذا التوجُّه، غيرَ أنّي تركت البحث فيها لمرحلة أخرى إن شاء اللّه تعالى.

ولمّا رجعْتُ إلى بلدي سلطنة عمان واستقرَّ بي المقام بدأت بكتابة هذا البحث، وبمرور زمن عليه وجدت من المستحسن إضافة الرأي العلميّ فيه، فاستعنْتُ ببعض المصادر من جامعة السلطان قابوس، ودوَّنتُ منها بعض ما يصلح للبحث، وأشرتُ إلى ما يحتاج إلى الإشارة إليه، كما بدأت بمطالعة كتب أُخرى متعلّقة بالبحث، ونظرت

في عدَّةِ مواقعَ على شبكة الإنترنت للإطلاع على ما كتب في هذا الموضوع.

والآن وبحمد اللّه تعالى، وبعد دعائي لربِّ العالمين أن أتوفَّق في إخراج الكتب التي ظلَّت في ملفّات الحاسوب الآليّ، أُخرج هذه الأوراق إلى السوق الثقافيّة، آملاً القبول والنجاح دنياً وآخرةً.

هلال بن حسن بن عليّ اللّواتي
الخوير – سلطنة عمان
٦ شوال ١٤٣٣هـ.
الموافق: ٢٨/ ٨/ ٢٠١٢م

المقدمة

التمهيد

من أهمّ المواضيع التي عُنِيت باهتمام خاصّ، وكَثُر الحديث عنها، وبالخصوص في عصرنا، وتحديداً بعد سقوط السجن «باستيل» وإعلان الثورة على قيود وأسر وسلطة الكنيسة ورجالاتها هو «موضوع المرأة» وما يتعلّق بحقوقها، ومنزلتها في المجتمع، ولا يزال الموضوع محلَّ تداول بين الأفراد والجماعات، تُتَبادل فيه الاتّهاماتُ تارةً والنقدُ البنّاء تارةً أُخرى.

غيرَ أنّ الموضوعَ أخذ منحىً وطابَعاً متأثّراً بخلفيّاتٍ بيئيّةٍ وقبليّةٍ وتراثيّةٍ أكثرَ من أخذِهِ لمنحىً موضوعيٍّ، ولطابعٍ واقعيّ.

وكما نعلم جيِّداً أنّه لا يوجَدُ حِوارٌ إلّا وهو محتاج ومفتقر إلى «**أُصول موضوعية**»، و«**معايير ثابتة**» «**مرجعيّة**» التي يُعبّر عنها بـ«**الحقّ المطلق**»، وإلّا فإنَّ انعدام أصل مرجعيّ يرجع إليه المتخاصمان يوجب زعزعة الاطمئنان في أيَّة نتيجة يتوصَّل إليها الفرد والمجتمع، بل ويؤدِّي إلى طعنه بالانحياز وعدم الموضوعيّة، وبالتالي يؤدِّي إلى شعور المرء بالغبن ووقوعه ضحيَّةَ تآمر.

إنّ «الأصلَ الموضوعيَّ» إذا وُجد فإنَّه يحقق حياة حضاريّة يطمئنّ إليها الإنسان، إذ يرجع إليه في كلِّ وقت يرى فيه الاختلاف

بين أطراف الحوار، فعلمُ الإنسان الوجداني باستحالة التناقض، وأنّ أحد الطرفين على صوابٍ والآخر على خطأ يؤكِّدُ على ضرورة وجود معيارٍ فاصلٍ بينهما، وإلّا فإنَّه لا يُتعقَّلُ تصويبُ هذا وتخطئةُ ذاك من دون وجود معيارٍ مصوِّبٍ ومخطِّئ، وإنّ هذا الأمر وجدانيّ وعقليّ بل وعرفيّ أيضاً، وقد تسالم عليه العقلاء، وأصحاب الوجدان السليم، لذا لن نخوض في إثبات المطلب ذاته، فأصلُهُ بديهيٌّ، وواقعيّتُهُ ضروريّة. نعم نتّفق على الاختلاف الواقع بين الناس في تحديد ذلك «**الحقّ المطلق**»، و«**الأصل الموضوعيّ**»، و«**المعيار الثابت**»، وهذا بحث آخر.

تحرير محل النزاع والإختلاف:

إنّ موضوع حقوق المرأة ومنزلتها من المواضيع التي كَثُرَ الحديث عنها، وبمقدار كثرة الحديث فيه كَثُرَ الاختلاف بين متناوليه إلى درجة التباين والتناقض، وأظنّ بحسب نظري القاصر أنّ المشكلةَ الأساسيّةَ في تعدُّد الآراء والاتجاهات في هذا الموضوع تكمن في الخلط بين ثلاثةِ عناصرَ أساسيَّةٍ في عملية الحوار، وعدم استيضاحها لدى أطراف النزاع بشكل صريح قبل الدخول في الحوار والنقاش، وهذه العناصر هي:

العنصر الأوّل: الرؤية.

العنصر الثاني: التطبيق والآليّة لتفعيل العنصر الأوّل.

العنصر الثالث: الواقع المُعاش.

العنصر الأوّل: الرؤية

فأمّا على مستوى **العنصر الأوّل**.. فإنّ الرؤيةَ الكونيّةَ للعالَمِ والوجودِ لها الأثرُ الكبيرُ في مرحلة التشخيص النظريّ للموضوع، وكان هذا عاملاً مهمّاً في حدوث الاتفاق وفي نشوء الاختلاف بين وجهات النظر، ما أدَّى إلى انسحاب هذا الأمر إلى موضوع الرؤية حول المرأة وحقوقها ومنزلتها.

العنصر الثاني: آليَّة التفعيل

وأما على مستوى **العنصر الثاني**.. فأهمّ إشكالية تواجه هذا العنصر هو: المُعتمد والمُستند في التطبيق، فإنّ هذا العنصر هو فرع العنصر الأوّل، وهو يمثّل الأساسَ القاعديَّ للبناء الذي سيليه في عملية التفعيل والعمل والتطبيق، وهو يُعْتَبَرُ عنصراً مهمّاً في البَيْن، وكما نعلم وجداناً أنَّ المقدِّمات هي التي تُحدِّدُ النتائجَ التي تليها.

فإذا لم ينتهِ المرء في الرتبة الأولى من تحديد الرؤية للعالم والوجود والحياة، فإنّه من اليقين سوف يواجه عقبات لا تنتهي في تطبيقاته، وينتهي به المطاف إلى الفشل والسقوط، ومع تحديد الرؤية يَرِدُ بحث متفرِّع عنه وهو: صحّة الرؤية وعدمها، فإنّ هذا التوصيف لا بُدَّ أنْ يكون مطابقاً للحقيقة والواقع.

وبقطع النظر عن هذا التوصيف، فإنّه لا يُشَكُّ في كون الرؤية ستتركُ أثرَها على السلوك الإنسانيّ، وسيكون هذا الأثر من سِنخها، لتناسب العلّة والمعلول.

وإذا انتهينا من اعتماد الرؤية فستبقى مرحلةٌ لا تقلُّ أهميّةً منها

وهي تأتي في أثر مرحلة الاعتماد للرؤية، وهي قد تشكِّلُ حجرَ عثرةٍ أمامَ تفعيلها في الفرد والمجتمع، وتؤدّي في النتيجة إلى الفشل، وهذه المرحلة هي «مرحلة اختيار واعتماد الآليّة المناسبة لإجراء العنصر الأوّل في الفرد والمجتمع» وخاصّةً فيما يتعلّق بالمرأة، فإنّ آليّةَ التفعيل إذا لم تكن دقيقة فإنّها سوف تسبِّب اختلالاً في التوازن الاجتماعيَّ، بل قد يصل الأمر إلى التأثير على التوازن السياسيّ والأمنيّ للدول، وكما نعلم أنّ الآليّة عادةً تعتمد الأساسين: الكمّ والكيف، ويتخلّلهما البعدان «**الزمكاني**».

ولا نشكّ في أنّ اختيار الآليّة يعتمد على دراسة الواقع المعاش، وهو من متعلّقات العنصر الثالث.

العنصر الثالث: الواقع

وأمّا على مستوى **العنصر الثالث**.. والذي نريده هنا هو ملاحظة قوّة الواقع، وشدَّته من حيث تفاعله مع التغيير من جهة، ومن حيث ترسّخ الصفات والعادات من جهة أخرى، فنلحظ في هذه النقطة الجهةَ المتعلِّقةَ بدراسةِ المجتمعِ، ومعرفتِهِ.

والذين ينتهون إلى نتائجَ جيّدةٍ وإيجابيّةٍ في حقّ المرأة، من حيث الحقوق والمنزلة، فإنّهم يواجهون أمامهم جبل الواقع الاجتماعيّ الذي يصعب اختراقه، وهذا بدوره يساهم في عرقلة تحقيق حقوق المرأة ومكانتها بما تستحقّه.

ولن أعدوَ الحقيقةَ -ولعلّك تُشارِكُني في الرأي- إنْ قلتُ: إنّ النزاعَ القائمَ حولَ المرأة يفتقرُ إلى وحدة الموضوع من جهةٍ، وإلى الأُسس والأصول الموضوعيّة المرجعيّة من جهة أخرى،

وعادةً بل وغالباً ما يلاحظ على الحوار والنزاع أنَّه قد اصطبغ بصبغة تراثيّة أو تقليديّة ممّا يزيد من الفجوة الفكريّة بين أطراف الحوار، وهذا من شأنه أن يُسدَّ على الإنسان طريق الوصول إلى نتيجة مرضية.

والاعتماد على المتغيِّرات يوجب الاختلاف، ويوجب التزلزل أمام كلّ ما من شأنه أن يشكّل تهديداً أمامَ مسيرة المرأة.

وفي الوقت نفسه لا يمكن أن نغضّ الطرف عن وجود أسرى الأهواء والأمزجة -وهذا من تداعيات الرؤية الوجوديّة الكونيّة السلبيّة-، فيُدلي من هو من صنف أولئك في موضوع المرأة بدلوه، فلا يعدو كلامُهُ وحواراتُهُ الجدل، وكما نعلم أنّ الجدليّة لا تؤدّي بالمرء إلّا إلى نتائج وخيمة فكراً وعملاً.

فإذا غلب الحوارَ الإفراطُ من جهةٍ، والتفريطُ من جهةٍ أخرى؛ فإنّه من طبيعة الحال سوف لن يُثمِرَ، ولن يقودنا إلى المواقف الإيجابيّة، هذا مع ما قد يسبِّبُهُ من مزيدٍ من الشّرخِ بين أطراف الحوار، ومزيدٍ من العقدة في الوصول إلى الحقيقة، ومن ثمَّ قد يقرب الأمر إلى الاستحالة في الوصول إلى العلاج والحلّ الناجع، وسواءٌ من الأصل أو على المدى القريب.

إلى حلّ النزاع..

إنّ من أهمّ القضايا التي تؤمن بها الفطرة الإنسانيّة، ويعشقها العقل البشريّ، ويعتبرها أمَّ القضايا العقليَّةِ على الإطلاق قاعدةَ «**استحالة اجتماع النقيضين**»؛ إذ بهذه القاعدة الفطريّة يَحُلُّ العقلُ أعقدَ المسائلِ

الكونيّة، ويصل إلى أروع الثمار الفكريّة، وتجتمع الأمم والشعوب جميعها في مكان واحد متجاوزةً البُعدين الزمانيَّ والمكانيَّ، بل وتنصهر كلُّ الأعراقِ والأعرافِ في بوتقة واحدة، تأكيداً على أهمِّ عنصر من العناصر المشتركة بين كلّ الأُمم والشعوب الماضية والحاضرة واللاحقة، وهو العقل.

فمن خلال العقل والفطرة يُستخلَصُ أهمُّ النتائج بل وأمُّها وأصلُها، وهي استحالة اجتماع النقيضين، فهما يأبيان أن يقولا بصحّة رأيين أو أطروحتين أو طرفين أو جهتين أو مدرستين وهما معاً يسلكانِ مسلكَ التناقض.

وفي موضوع المرأة؛ سنجد الآراءَ التي طُرحت ولا تزال تُطرح في العالم لا تخلو من التناقض في الجملة، وبحكم القاعدة الفطريّة العقليّة يكون من المستحيل أن تكون الأطراف كلُّها صحيحةً رغمَ وجود التناقض الصريح بينها، فلا بُدّ من وجود رأيٍ صحيحٍ وآخرَ فاسدٍ.

والسؤال المهمّ الذي يفرض نفسه علينا هو:

ما هو الرأي الصحيح من الآراء المطروحة في موضوع ومسألة المرأة؟.

ولكي نعتمد الجواب لا بُدّ لنا في الرتبة السابقة عليه أن نعتمد الأساسَ الموضوعيَّ المرجعيَّ، ومنه تكون انطلاقتُنا، وإليه يكون مرجعُنا إذا ما ضاقت بنا سُبُل الحوار، ولم نستطع الوصولَ إلى جوابٍ مقنعٍ فيما يتعلّق بالمرأة.

ولكن..

كيف يمكننا الوصول إلى الإجابة الموضوعيّة؟ وهل يوجَدُ هناك رأيٌّ مرجعيٌّ في حياتنا بحيث يكون هو الرأيَ الحاسمَ من دون منازع؟!، وبتعبيرٍ أدقّ أن يكون هو «**الحقّ المطلق**» الذي له حقّ الفصل والحسم، أم أنّ كلّ رأيٍ يحتمل الصوابَ وإن كان إلى حدِّ «**التناقض**»؟!. وبمعنى آخر، إنّهما يحتملان «**النسبيّة**»!. وهل من أُسُسِ وقواعدِ «**النسبيّة**» القبولُ بـ«**التناقض**»؟!.

البحث عن السبيل الموضوعيّ

إنّ اعتماد النسبيّة في الحوارات، وفي الحكم، وفي القرارات على الأفكار والسلوك، وفي النقد والتقييم يرجع في نهاية الأمر إلى اعتباره مرجعاً في النزاع، وأساساً عند الاختلاف، وهو يعني أنّ المتبنّيين له يعتبرون النسبيّة المرجعيّة المطلقة، والأصل الموضوعيّ، وهذا الاعتماد لهذا الاعتبار بنفسه يفتقر إلى دليل يدعمُهُ، وإلى برهان يُثبِتُهُ، وإلى منطق يُقِرُّهُ، وإلى وجدان يؤيّده.

ثُمَّ إنَّ القولَ بالنسبيّة يضطرّنا إلى العيش في حالةٍ من عدم الاستقرار، والاضطراب في الحياة، وهذا من شأنه أن لا يُعطيَ لأيَّةِ فكرةٍ ولأيِّ سلوك قيمةً، بل ولن يملكَ أحدٌ أن ينتقدَ الآخرين وإن صدرت منهم المتناقضات لاحتمال أن يكون الجميعُ على صواب.

إضافةً إلى أنّ القول بالنسبيَّةِ واعتمادَهُ من أصلٍ مرجعُهُ إلى القول بالأصل الموضوعيّ وهو في نفسه خُلْفٌ، إذ أنّنا في هذه الحالة نعتبرُ النسبيَّةَ تمثِّلُ الحقَّ المطلقَ، والتبنِّي لهذا الوصف في الحقيقة يقود إلى الاستحالة، فهو خلاف لنفس النسبيّة، بتصوير؛ إذ كيف يمكن للنسبيّة أن تُصبِحَ الحقَّ المطلقَ وهي في نفسها وذاتها تأباه، وتدفعه؟!.

ونضيفُ إلى ما سبق، أنّ القائلين بالنسبية في حقيقة أمرهم وفي حواراتهم لا يعترفون إلّا بالحقّ المطلق، وبالأصل الموضوعيّ

المرجعيّ لكلّ الاختلافات، فتراهم يصرّون على تخطئة الآخرين وتصويب أفكارهم، وهذا بحدِّ ذاته نحوٌ من أنحاء القول بالأصل الموضوعيّ والأساس المطلق، وهو اعترافٌ ضمنيٌّ بوجود الحقّ المطلق، وإذعان لمرجعيّته، وهذا القولُ الحاليُّ ليس إلّا ممّا يثبته ويُقرُّهُ الوجدانُ، والطبعُ البشريُّ، والجِبلّةُ الإنسانيّةُ، والفِطرَةُ المندكَّةُ فيها هذه الحقيقةُ، فلِمَ التخوُّفُ من قبول الحقِّ المطلقِ من الأصلِ، والاعترافِ بالمعيارِ الموضوعيّ؟!.

إنّ الوجدانَ البشريَّ، والعقلَ الإنسانيَّ أبيَا إلّا القول بوجود مقاييس تشكّل «**مرجعاً**» و«**حقّاً مطلقاً**» لا يقبل «**النسبيَّةَ**»، ولذلك تجدُ الوجدان والعقل يتوجّهان في الاختلاف إلى استحضار الأصول الموضوعيّة والمرجعيّة لحسمه، والبتّ فيه بقرار صارم وفاصل، وهذا ما جعل الإنسان ينحو إلى وضع القوانين، ويركن إلى سنِّ التشريعات، كلّ ذلك إيماناً منه بوجود «**حقّ مطلق**» مرجعيّ في الحياة، ولا يهمّنا في المقام حالياً أن نعرف مصدر هذا الحقّ، ومن يمنحه الشرعيّة، والمصداقيّة، ويُمضيهِ بين الأفراد والجماعات، إذ المهم الآن وفي هذه الرتبة والمرحلة من البحث هو أن نعرف أنّ الحاجة إلى «**حقّ مطلق**»، وإلى «**المرجعيّة المطلقة**»، وإلى «**أصلٍ موضوعيٍّ**» من صميم فطرة الإنسان، ومن بديهيّات العقل البشريّ، وما إنكارُ اللسانِ ولقلقتُهُ يُضِرُّ ما أثبتَهُ الوجدانُ قبلَ إثباته بالدليل والبرهان.

فبحسب الوجدان والعقل أنّ «**المعيار الموضوعيّ**» لمحاكمة الفكر والسلوك موجود، وأنّ الرأي «**المطلق المرجعيّ**» لمتحقّق، وليس لنا مزيد كلام لإثبات هذه الحقيقة الواقعيّة الثابتة بالوجدان،

القائمة بذاتها، المستحكمة في برهانها، المتينة في بيانها، الواضحة في معالمها، ولولا ذلك لما أمكن لأحد أن يخطوَ خُطوةً واحدةً في نقد الطرف الآخر كما أسلفنا، ولا إلى التقدّم والرقيّ في كافّة المجالات الإنسانيّة، ولاستحال التقدُّمُ والتكاملُ من أساس.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو..

كيف يمكننا الوصول إلى «**الأصل الموضوعيّ**»، وما هو الطريق لمعرفة «**المقياس المرجعيّ**» والحقيقة الواقعيّة، إذ إنّ معرفة ذلك لأمرٌ ضروريٌّ، وخاصَّةً، أنّا نلمَسُ ونعيش الاختلاف بيننا نحن البشرَ في كُلٍّ من الفكر والسلوك على مستوى الأفراد والجماعات، بل ونجد أنّ هذا الاختلاف يصل إلى درجة الخلاف، ويصل إلى درجة التناقض، ونجد أنّ أثر ذلك ينعكس ويظهر على المستوى المعيشيّ للأفراد وللجماعات أمناً، وسياسةً، واقتصاداً، وتربيةً وغير ذلك.

فلا بُدَّ إذن من حلِّ محلَّ النزاع والاختلاف على أساس مرجعيّ موضوعيّ، وإلّا فستسود الفوضى في المجتمعات الإنسانيّة، ومن ثمَّ تقودنا إلى سلب الأمن والأمان فيها.

ثم إنّ رغبة المرء هي معرفةُ الحقيقة بما هي حقيقةٌ بقطع النظر عن الثمار المترتّبة عليها، ومن هنا كان لا بُدَّ من الدخول في بحث أساسيٍّ يُمهِّد لنا طريقَ الدخولِ إلى موضوع المرأة، ومن خلالِهِ نستطيع أن نُقيِّم الفكرَ والسلوكَ المطروحَين والمتعلِّقَين به، ويتيسَّر لنا أيضاً أن ننقدهما نقداً موضوعيّاً بعيداً عن المزاجيّة والهوى.

إلى سبيل الأصل الموضوعيّ..

إنّ الوجدانَ الإنسانيَّ قد أثبت في محلِّه وجود خالق الكون، وقام البرهان العقليّ بالكشف عن هذه الحقيقة بما لا يتطرَّق إلى مقدّماته ونتائجه أيّة شكوك أو إشكالات، وأثبت أيضاً أنّ الخالق حكيمٌ، قد وضعَ كُلَّ شيء في موضعه ممَّا دلَّ على أنّه أحسنُ الخالقين، وأنّه ليس بالإمكان أحسنُ ممّا كان، وثَبَتَ أنّ من جملةِ مخلوقاتِهِ وموجوداتِهِ الإنسانَ.

ونعلَمُ أيضاً أنَّ الإنسان كائنٌ معقَّدُ التركيب، ويزداد تعقيدُهُ إذا ما انْدَكَّ في المجتمع، وتعامل مع أقرانه من الناس.

وهذ الإنسان منذ أن وُجِدَ وُجِدَ باحثاً عن شيء يُحقِّقُ ذاتَهُ وسعادتَهُ، وراغباً في بناء حضارة إنسانيّة يستطيع بها الوصول إلى متطلّباته المركّبة من المادّة والمعنى من دون أن يشعر بوجود تزاحم فيها.

فبما أنّ اللّه تبارك وتعالى هو الخالق والمُوجِد لهذا الإنسان والموجودات، ونلحظُ الإنسان مضطرّاً للتعامل مع المحيط الذي حوله المكوَّن من الإنسان مثله ومن الموجودات الأخرى، فهنا إمّا أن يتركَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ يخوضُ تجربتَهُ ومسيرتَهُ منفرداً في هذ العالم بلا إرشاد منه سبحانه وتعالى ولا توجيه ولا تعليم، وإمّا أن يقوم بتربيته وتعليمه وإرشاده لتحقيق رغبته الفطريّة وهي تحقيق الحضارة الإنسانيّة.

فإذا التزمنا بالرأي الأوّل صادَفَنا أمران مهمّان:

الأمر الأوّل: ضرورة القدح في الحكمة الإلهيّة.

الأمر الثاني: إمكانيّة تحوُّل الفقير ذاتاً إلى الغنيّ بالذات.

فالأمر الأوّل.. واضح الفساد؛ إذ الإنسان يخوض مراحل التغيير العلميّ خروجاً من حالة الجهل ودخولاً إلى حالة العلم، وهذا ما أثبتته العلوم النفسيّة والتربويّة وغيرها.

فالإنسان جاهل بالمحيط، جاهل بقوانينه، جاهل بما يُصلِحُهُ وما يُفسِدُهُ، وجاهل سبل تحقيق السعادة، وما يوجب تعاسته، وجاهل بكيفيّة البناء الحضاريّ، فإذا تُرِك الإنسان، وهذا حاله، من دون رعاية وتعليم وإرشاد صار فريسةَ جهلِهِ، وسلك بذلك مسلِكَ شأنُها إهلاكُهُ كفرد وكمجتمع، وبالتالي عرَّض ما يحيط به للدَّمار.

وهذا بحدِّ ذاته يتعارض مع الحكمة الإلهيّة التي تقتضي الصلاح في الكون، وتقتضي أن يسير كلّ موجود إلى الحياة الإنسانيّة الحضاريّة، فالحكمة الإلهيّة تأبى أن يسري الفساد في العالم.

فإذا كان الإنسان هذا حاله من الجهل، وعرفنا أنّ اللّه -عزَّ اسمه- هو العالِم بمصالح الموجودات، والعارف بما يُفسدها، فإنّ انحصار ذلك فيه سبحانه وتعالى يجعل له حقّ التدخّل في الشأن الإنسانيّ ليرفع عنه جهله، ويُرشِدَهُ إلى المعالم السامية، ويُعلِّمَهُ الطريقَ الواضحَ المؤدِّيَ إلى هدفِهِ، صوناً له من التعرّض للأثر الكونيّ التكوينيّ.

وأمّا **الأمر الثاني..** فبما أنّ الإنسان يجهل طريق سعادته، وإذا افترضنا أنّه يعرفه فهو فاقد لمعرفة كيفيّة تحقيقه، فيلزم احتياجه إلى من يرفع عنه جهلَهُ، ويسوقه إلى سعادته.

والشاهد على جهله، وعلى فقدانه معرفة الكيفيّة لِمَا يحقّق سعادته هو مسيرته عبر العصور، وشاهد حاله، فهو يحاول جاهداً الوصول إلى هدفه المنشود، فيخفق، وأنت تشاهد آثارَ فسادِهِ بارزةً في بني نوعه، وفي محيطه، فلا هو يصل إلى غايته، ولا هو يترك المحيط على طبيعته، وما عصرنا الحاضر إلّا حلقة من حلقات السلسلة الإنسانيّة في تجربتها ومحاولاتها للوصول إلى ما يحقّق لها الحلم الأعظم، الذي طالما سعت البشريّة منذ بدئها إلى تحقيقه، وتبذل الغالي والنفيس له، وكلّما ظنَّت أنّها قد وصلت، جاءها ما يهدم إنجازاتها، ويُرجعها إلى نقطة البدء، إن لم نقل إلى ما قبلها.

وما صخرة الجهل التي يصطدم المرء بها سوى من صميم وجوده المعبَّر عنه بـ«**الفقر الذاتي**»، الذي هو محال أن ينفكّ عن صاحبه، فبالتالي يستحيل عليه أن يصبح غنيّاً، فما حقيقته سوى تأكيد وإشعار بالاحتياج المطلق إلى الغنيّ المطلق بالذات.

فالنتيجة الحتميَّة لِمَا تقدَّم هي أن لا محيص من قبول الرأي الثاني وهو أنّ اللّه عزَّ وجلَّ لا يترك الإنسان من دون تعليمه وإرشاده وتوجيهه وتربيته، وكيف يتركه وهو «**الربّ**» الذي من أهمّ مقوِّمات ربوبيَّتِهِ سَوْق الموجود إلى غايته، وهذا ما يُعبِّر عنه الأعلامُ بـ«**قاعدة اللطف**».

ولكن..

كيف تمَّت عمليَّةُ التعليم الإلهيّ؟.

لقد تمَّت هذه العمليّة التعليميّة التربويّة الإلهيّة للإنسان على نحوين:

النحو الأوّل: تزويد الإنسان بـ«**دافع ذاتيّ**» يدفعه إلى تحقيق

سعادته، وقد سُمِّي بـ«**الفطرة**»، وليس استخدامُنا للفظة «**التزويد**» إلّا مسامحةً؛ لأنّ أصل وجود الإنسان في حقيقة الأمر «**فقر محض**»، وهذا الأمر لا يُزوَّد به الإنسان لكونه من أصل وذاتيّات الخلقة التي هي في الحقيقة من لوازم المخلوق الذاتيّة، والتي أُخِذَ فيها استحالة الانفكاك ذاتاً.

وإضافةً إلى ما ذُكر نَجِدُ أنّ الفطرة قد بُصمت ببصمة خالقها، حيث أوجدها الباري سبحانه وتعالى بنحوٍ تكونُ «**مُحبَّةً لذاتها**»، فهذا التركّب للفطرة هو ما خلق عندها دافعاً للبقاء، وللنزوع نحو استكمال الذات، فيحقّق سعادتها المنشودة.

النحو الثاني: بما أنّ الفطرة تملك قابليّة لأن تُحتجب عن مصداق سعادتها بسبب حواجب هذه النشأة المحمَّلة بمختلف الملذّات الآنية، فيتوهَّم أنّها مرادها، وهي هدفها ومطلبها وغايتها، فإنّ اللّه تبارك وتعالى قام بإرسال الرُّسل والأنبياء والأوصياء وزوَّدهم برسائلَ وكتب وبيانات لإرجاع الفطرة إلى طريقها الذي ضلَّته من جهة، وبإصلاح الخلل الناشئ من جهل الإنسان من جهة ثانية، ولضمان وتأمين المسيرة الإنسانيّة من عدم الانحراف مرَّةً أخرى من جهة ثالثة، كلّ ذلك كان تحقيقاً للحياة الحضاريّة على وجه الأرض، وإيصالاً له إلى كماله الذي تنشده فطرته وتطلبه.

تحقّق المرجعيّة الموضوعيّة

فإذا وجدنا أيَّ اختلافٍ بين الأفراد والجماعات في الفكر والسلوك؛ فإنّنا بالبيان المتقدِّم نستطيع أن نقول: إنّ المقياس

الأوحد لترجيح فكرةٍ على أخرى، أو سلوكٍ على آخرَ عند التعارض أو التنافر أو الاختلاف، لا يمكن أن يكون إلّا للرأي الإلهيّ باعتباره العارف والعالِم بمتطلّبات الفطرة والإنسان والمحيط، والعارف والعالِم بطرق تحقيق هذه المتطلّبات، والعارف والعالِم بما يشكّل حجرَ عثرةٍ أمامَ تحقيق السعادة الإنسانيّة، وطريقة علاجه، والعارف والعالِم بكيفيّة الاستفادة من هذه النشأة الماديّة المحدودة لتلبية رغبة الفطرة اللامحدودة، على نحو لا يؤدّي إلى خللٍ في طبيعة المسيرة الكلِّيَّة.

وبمعنىً آخرَ.. فإنّ «**الأصلَ الموضوعيَّ**» و«**المرجعيَّةَ المطلقةَ**» ما هو إلّا الحكمُ الصادر من اللّه تبارك وتعالى لكونه يكتسب خصوصيّةَ «**الحقِّ المطلقِ**» منه سبحانه الذي ليس هو سبحانه إلّا «**الحقَّ المطلق**».

والقرآن الكريم أكَّد على هذه الحقيقة بوضوحٍ تامٍّ، وببرهان قاطع، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾(١).

وبيَّن القرآن الكريم أنَّ ما صدر منه سبحانه وتعالى أيضاً حقٌّ مثلُهُ سبحانه قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾(٢).

وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحقّ لا يصدر إلّا منه سبحانه وتعالى فقط، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾(٣).

(١) سورة الحج / ٦.
(٢) سورة سبأ / ٦.
(٣) سورة البقرة / ١٤٧.

والقرآن الكريم يؤكِّدُ أنّ في مسيرة الحقائق لا يكون هناك محلٌّ رماديٌّ قابلٌ للتوسّط بين الحقّ والباطل، بل إمّا أنّ يكون الأمر حقّاً، وإمّا أن يكون باطلاً. والآيات القرآنيّة في صدد بيان هذه الحقيقة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].

والظنّ لا يمكن أن يكون محسوباً على الحقّ؛ لأنّه لا يؤدِّي النتائج التي تؤدِّيها الحقائق، والحقّ. ولذا فإنَّ القرآن الكريم يرفض اعتبار الظنّ مستمدّاً من أصل. قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[3].

فإذن المرجعيّة المطلقة ليست إلّا الحقَّ سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم عندما يطرح هذه الحقيقة، فإنّه لا يطرحها كمجرّد ادّعاءات ليس لها واقعيّة، بل ويتحدَّى بما يدعو إليه من الحقائق كُلَّ العقول والأفكار. وتحدِّيه هذا غيرُ مقتصرٍ على زمانٍ دون آخرَ، أو مكانٍ معيَّن، أو فئةٍ معيَّنةٍ، بل إنّه يشمل كُلَّ العباد، وكُلَّ البلاد، وكُلَّ الأزمنة إلى آخر وجود البشريّة على وجه الأرض. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4].

(١) سورة يونس/ ٣٢.
(٢) سورة يونس/ ٣٥.
(٣) سورة يونس/ ٣٦.
(٤) سورة النمل/ ٦٤.

عوداً على بدء..

فعلى الأساس المتقدِّم، فإنّ المرجعيَّةَ والأصلَ الموضوعيَّ الذي نحتاجه للاعتماد عليه في كلّ خطواتنا، وخاصَّةً عند نشوء الاختلاف فيما بيننا هو «**اللّه**» عزَّ وجلَّ. وعليه، فإنّ الاختلاف الموجود في تحديد حقوق المرأة، وفي إعطائها المكانَ المناسبَ لها في الحياة، وفي سلبِها ما لا يناسبُها هو «**اللّهُ**» عزَّ وجلّ.

وبهذا المسلك الربّانيّ تندفع، بل وتضمحلُّ احتمالاتُ تدخُّلِ الهوى في الرأي حولَ المرأة، وتزولُ التشكيكاتُ حول صلاحيّته، ولا يبقى مجال لزعزعة الثقة بِهِ، فنعتمد على الرأيِ الإلهيِّ في التقييم والنقد والتحديد والمكانة.

وبهذا المسلك لن يكون للرأي الفرديّ أو العرفيّ أو الدوليّ أيُّ قيمةٍ؛ إلّا إذا ورد من الشارع المقدَّس إمضاؤُهُ، فإن أمضاه اعتبرناهُ وأخذنا بِهِ وإلّا فلا. فاعتباريّة الفرد والمجتمع لا تنشأُ مستقلّةً، بل تستمدّها منهُ وجوداً وبقاءً وقيمةً.

ومن هنا، ندخلُ الآن إلى رأي الإسلام حول المرأة، لنقف على رأيه الشريف بكلِّ وضوحٍ وصراحة.

ولكن..

لا بدّ من الإشارة إلى نقطة مهمّة جدّاً، وهي أنّ كلّ ملاحِظ أو باحث أو دارس في موضوع المرأة في الإسلام لا بدّ أن يفصل بين أمرين يُطرحان في الحوارات عادةً وهما:

الأمر الأوّل: رأي الإسلام في المرأة وفي حقوقها ومكانتها.

الأمر الثاني: رأي المنتمين إلى الإسلام وسلوكهم تجاه المرأة، وهم المُسمَّون بـ«المسلمين».

فرأي الإسلام شيء، ورأي وسلوك المسلمين شيء آخر. والبحث السليم لا يتمّ إلّا من خلال النظر إلى نفس تعاليم الإسلام، والوقوف على رأيه حول المرأة.

ومن الخطأ أن نعتمدَ سلوكيّاتِ المسلمين ونعتبرَها كاشفةً عن رأي الإسلام.

ولو قيل: إنّ قراءة رأي الإسلام تتمّ من خلال دستوره وهو «**القرآن الكريم**»، ومن خلال المبيّن لهذه الدستور وهو سُنَّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّ القراءة سوف تختلف من شخص لآخر لهذا الكتاب الإلهيّ، وهذا يعني أنَّ احتمالَ التباينِ في القراءةِ واردٌ جدّاً، فأين يكون للحقِّ المطلقِ وجودٌ وهو بنفسه يقبل النسبيّة؟!!.

نقول: **أوّلاً**: إنّ «**الدستورَ الإسلاميَّ**» في نفسه «**الحقُّ المطلقُ**»، وقراءة البعض له، الموجبة للتصوّرات النسبيّة لأحكامه، لا تُغيِّرُ من الواقع شيئاً، وخاصّةً لَمّا انتهينا من بيانه وهو أنّ «**الحقَّ المطلقَ لا يصدرُ منه إلّا الحقُّ المطلقُ**».

ويُردّ عليه أيضاً بالبيان التالي: وهو أنَّه لو قلنا: إنّ مجرد الاختلاف في القراءة يوجب القول بالنسبيّة، فلازم ذلك تغيير الواقع برمّته ولو جملةً، فلن يبقى الواقع واقعاً إلّا بما يقرأه الإنسان، وهذا بحدِّ ذاته مخالف للمتبنّيات الوجدانيّة والعقليّة القاضية بوجود حقيقة واقعيّة في الخارج، وأنّ هذه الحقيقة لا يقدح فيها قراءة قارئ إن خالفها.

نعم، يبقى الكلام في كيفية مطابقة القراءة مع الواقع، فهو أمر آخر، ولا حاجة للدخول فيه لكونه خارجاً عن موضوع البحث. ولكن المهمّ هو النتيجة، وهو أنَّ الواقع لا تُغَيِّرُهُ القراءةُ، وبالتالي نقول: إنّ الاختلافَ في تعدّد قراءة الحقّ المطلق لا يوجب الاختلاف في نفس الحقّ المطلق.

ثانياً: ويُدفَعُ الإشكالُ بما وضعَهُ اللّه سبحانه وتعالى من «**قادة**»، و«**ساسة**»، و«**هُداة**» حيث تجمع بينهم وبين تعاليمه الصادرة عنه روح واحدة، فهم من سنخ عالم «**الحقّ المطلق**»، وهم المُعبَّر عنهم بـ«**القرآن الناطق**» الذين يوضحون ما يُشتبه فيه من آيات «**القرآن الصامت**»، فينطقونه بحسب مراد اللّه تعالى، ويبيِّنون حقيقة كلماته عندما تختلف فيه القراءة عند عامّة الناس، فبالتالي ترتفع إشكالية القراءة المتعدّدة لنصّ الحقّ المطلق، وتفصيله في محلّه إن شاء اللّه تعالى.

المرأة في المصادر الإسلاميّة

يوجد لدينا مصدران أساسيّان يمكننا الاعتماد عليهما في معرفة الرأي الإسلامي في «**المرأة**»، وفي حقوقها ومنزلتها، وهما:

المصدر الأوّل: الكتاب العزيز المُسمَّى بـ«**القرآن الكريم**»، والذي يُعبَّر عنه بـ«**كتاب اللّه الصامت**».

المصدر الثاني: **السُّنَّة الشريفة**، ولها وجهان:

الوجه الأوّل: النبيّ الأعظم صلّى اللّه عليه وآله وأصحابه المنتجَبون.

الوجه الثاني: أهل بيت النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وأصحابه المنتجَبون.

ويوجد بين المصدرين مشترَكاتٌ عديدةٌ، بل لن نجد بينهما اختلافاً سوى أنّ هذا كتابُ اللّه التدوينيّ، وذاك كتابُ اللّه التكوينيّ. فتوجَدُ بينهما «**عناصر مشتركة**»، ومنها: «**العصمة**»، ويعني ذلك أنّ البيانات الصادرة منهما، غير منحازة، بل هي بيانات ونصوص في أرقى مراتب «**الموضوعيّة**»، «**الموضوعيّة المطلقة**». ولوجود السنخيّة بين المصدر الأوّل والثاني سُمِّيَ المصدرُ الثاني بـ«**كتاب اللّه الناطق**»، والأوّل سُمِّي كما تقدَّم بـ«**كتاب اللّه الصامت**».

وأعلام المسلمين لم يجدوا الفرق بين الكتابين من حيث المضمون، ومن حيث الكمالات التي تُنسب إليهما. فكلّ كمال يُنسب إلى القرآن الكريم، هو بحدِّ ذاته يُنسَبُ إلى «**النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وأصحابه المنتجبين**» وإلى «**أهل بيته عليهم السلام**»، وجميع النقائص التي تُسلبُ عنهُ هي أيضاً تُسلَبُ عنهم عليهم السلام.

وهذه العُلْقَةُ بين «**كتاب اللّه الصامت**» وبين «**كتاب اللّه الناطق**»؛ إنّما كانت من خلال ما تواتر عن نبيّ هذه الأمّة، وصاحب الرسالة الإسلاميّة محمّد صلّى اللّه عليه وآله وأصحابه المنتجبين. فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي أُوشك أن أُدعى فأجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه عزَّ وجلّ، وعترتي. كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. وإنّ اللطيفَ أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفونني فيهما». وهذا النصّ من رواية الصحابيّ أبي سعيد الخدريّ(١).

فمن هنا كان من الضروريِّ جدّاً التنبُّهُ إلى ضرورة الرجوع إلى السُّنَّة الشريفة إذا ما اشتبه على المرء فَهمُ آيةٍ من كتاب اللّه العظيم، أو التبس مفهوم من المفاهيم، أو لم يتّضح حكمُ مسألةٍ من مسألِ الكتاب العزيز، هذا مع ضرورة الرجوع إلى السُّنَّة الشريفة؛ وإلّا فإنّ القرآن الكريم، بيانه وما بناه من الأُسس والقِيَم العقليّة والإنسانيّة كافٍ لاعتماده، والرجوع إليه، بل ونلاحظ وجود روايات عديدة تُرجع الإنسان إلى القرآن الكريم فيما إذا أشكل عليه أمر الرواية، ولم يستطع معرفة مضامينها، فإن وافق القرآن الكريم أخذ بها، وإنْ

(١) انظر: كتاب المراجعات، وأسانيد هذا الخبر المتواتر، ص: ٢٠ - ٢١.

عارضها معارضة تامّة، بتحقّق جميع أركان التعارض التامّ، ضرب بها عرض الحائط.

وفي هذا البحث قد اقتصرنا الكلام على ما قدَّمه القرآن الكريم من المطالب حول ما تدور حوله مسائل بحثه، على أمل الوقوف على الروايات الشريفة لنخرج بمطالبَ تقودُنا إلى عمقِ دلالةِ النصِّ فيما يتعلّق بهذا البحث.

نعم.. ونذكر هنا نافلةً، وهي وجود روايات شريفة دلالاتها الظاهريّة فيها إشارات قد تفهم عدم الإنصاف والموضوعيّة في موضوع المرأة؛ إلّا أنّها مع تأمُّل بسيط سنجدها على غير ما تظهر عليه في أوّل وهلة، ولهذا فهي تحتاج إلى بحث وتحقيق، والدخول إلى عالم الفقهاء لمعرفة نظرتهم إليها، وهذا ما لا نريدُهُ هنا في الوقت الراهن.

الفصل الأوّل

المرأة
في القرآن الكريم

إلى معرفة الضابطة العامة..

يتحدّث القرآنُ الكريمُ عن الإنسانِ على ثلاثةِ محاوِرَ أساسيّةٍ -ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الحديثَ لا يشملُ الأنبياءَ والرُّسلَ، فالحديث عن هذا الصنف من البشر حديثٌ له خصوصيّاته، فقد يجتمع مع الإنسان في بعض الخصوصيّات، كالخصوصيّات البشريّة مثل الاحتياج إلى الأكل والشرب والنوم وكذا في تعرّضه للآلام والمحن والأمراض، وكذا إلى الموت، وقد يفترق عن بقيّة الناس كما في «**كمال العقل**»، و«**طهارة النفس**»، و«**سموّ الروح**»، فلذا سنختصر الحديث عن غير الأنبياء والرُّسل عليهم السلام - وهذه المحاور الثلاثة هي:

المحور الأوّل: الحديث عن الإنسان بما هو إنسان بغضّ النظر عن جنسه.

فالحديث فيه عن كليَّةٍ عامّةٍ، ويكون غالباً بالبحث والحديث عن الصفات المشتركة في الإنسان بما هو هو، ويتعرّض القرآن الكريم لهذا المحور تقييماً، ونقداً، كما يأتي:-

١- قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١)، فالحديث هنا عن الإنسان بما هو إنسان بغضّ النظر عن لونه، وجنسه، وطوله، وحجمه، ومكانته، ومنزلته، فهذه الآية الكريمة تشمل في حديثها الرجل والمرأة.

٢- قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(٢).

٣- قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٣).

٤- وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(٤).

وما هذا المحور في حقيقته وروحه إلّا فرعٌ من فروع «**الرؤية الكونيّة**»، التي تبحث عادة في «**نظريّة المعرفة**»، حيث الحديث فيه عن كليّ الموضوع بقطع النظر عن مصاديقه وأفراده.

وفي هذا المحور سنجدُ العناصرَ المشتركَةَ بين الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، وعدم الاختلافِ بينهما أبداً، فكلّ حكم يُنْسَبُ إلى

(١) سورة التين / ٤.
(٢) سورة النساء / ٢٨.
(٣) سورة العنكبوت / ٥٧.
(٤) سورة الملك / ٢.

الرجل فإنّه يُنْسَبُ إلى المرأة أيضاً، فهو تارةً يلحَظُ الإنسانَ من حيثيّة النفس، وأخرى من حيثيّة الروح، وثالثةً من حيثيّة البدن.

المحور الثاني: الحديث عن الإنسان بما هو رجل أو بما هو امرأة

وهو الحديث عن الإنسان بلحاظ كونه رجلاً، وبلحاظ كونه امرأةً، فمثلاً: يتحدّث القرآن عن الرجل بما هو ذَكَر، وبمختلف الألفاظ، كالرجل أو الرجال أو الذَّكَرِ تارةً، وأخرى يذكره باسمه وكنيته كفرعونَ وهامانَ وقارونَ وأبي لهبٍ ونمرودَ، وثالثةً يذكره بلحاظ نسبته الإضافيّة كالبنوّة أو الأبوّة أو الزوجيّة وهكذا.

وفي المرأة أيضاً تجد نفس اللّحاظ يتشابَهُ، فتارةً يذكرُ المرأةَ بوصفٍ أنثويٍّ كالنساء أو امرأة أو الأنثى، وأخرى يذكرها باسمها كآسية، ومريمَ، وثالثةً يذكرها بلحاظ نسبتها الإضافيّة كالأمومة والزوجيّة والأخوّة وهكذا.

فهذا البحث التعيينيّ مفاده البحث في الأفراد والمصاديق، ومع قليل من التأمّل فإنّ بحوثاً كهذه المتعلّقة بالأفراد والمصاديق تأتي عادةً في رتبةٍ لاحقةٍ عن البحوث الكليّة التي يُبحَثُ فيها عادةً عن أحكام الموجود بما هو موجود، كما بيّنّا قبل قليل.

وبرغم أنّ الحديث التعيينيّ محدود بحدود الأشخاص أو الأحداث إلّا أنّه لارتباطه بـ«**الظرف الموضوعيّ**»، و«**العلّة الوصفيّة**» يمكن أن يقبَلَ الانطباقَ على المجريات المستقبليّة، وهذا ما يُصطلَحُ عليه في محلّه بـ«**الجري والتطابق**»، وهو ما يجعل القرآن الكريم «**يجري مجرى الليلِ والنهارِ**».

ولنقف قليلاً عند هذين المحورين..

فلمعرفة الرؤية القرآنيّة حول «**المرأة**» لا بدّ من الوقوف فيها على ضوابطَ أساسيّةٍ للتفسير، وإلّا فمن أسباب الوقوع في الاشتباهات في آياته المباركة، والخروج بآراء متضاربة، ومتعارضة أحياناً هو الوقوف عند المحور الثاني فقط، والانطلاق منه في معرفة رؤيته حول المرأة.

فالمحور الأوّل، يقع الحديث فيه عن طبيعيّة الإنسان. وأمّا في المحور الثاني، فإنّ البحث يقع فيه عن الأفراد والمصاديق. وكما هو معلوم، أنّ البحثَ إذا انصبَّ على أيّ موضوع من خلال اعتماد المحور الثاني -من دون أن يكون للمحور الأوّل دورٌ أساسيٌّ فيه- فإنّ ذلك البحث لن يُثمِرَ، بل سيؤدّي إلى نتائج من شأنها إيجاد صورة غير صحيحة لدى كلّ من يدخل من خلالها فقط، وستخلق انطباعاً ناقصاً.

ولكن لو تمَّ اعتماد المحور الأوّل أوّلاً ثمّ من خلاله تبحث المواضيع المتعلّقة بالمصاديق الخارجية ثانياً، فإنّ البحث سوف يثمر ويؤدّي إلى نتائجَ إيجابيّةٍ سليمةٍ وجيِّدة.

ولنأخذ «**معرفة الخالق**» من خلال القرآن الكريم مثالاً؛ فإنّ هناكَ آياتٍ في هذا الكتاب العزيز نصّها: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾[1]، وفي الوقت نفسه توجد آيات أخرى نصّها: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[2]، فمع التدبّر، بل النظر المتأمّل فيهما، سنجد نحواً من التعارض، وصورته هي: أنّ «**اليد**» «**شيء**»، والنصّ الآخر يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، إذن ليس المقصودُ من «**اليدِ**» والمتصوَّرُ منها «**الجارحة**»، بل المقصود

(١) سورة الفتح / ١٠.

(٢) سورة الشورى / ١١.

من «**اليد**» أمرٌ آخرُ، فمن هنا يتوجّه الباحث إلى اللغة العربيّة لمعرفة استعمالاتٍ أخرى للفظة «**اليد**». فمع الرجوع إلى اللغة العربيّة، والنظر إلى استعمالات اللّفظ «**يد**» يجد أنّ هذه اللفظةَ تُطلقُ على «**القدرة**» أيضاً. فاعتماداً على الرؤية الكليّة، يجد العقل نفسه أمام التصرّف في ظاهر اللفظ بما ينسجم مع النصوص القرآنيّة الشريفة الأخرى، والتي هي بدورها معتمدة على أساس قبليّ رتبةً ومرحليّاً، وهو ما يُعرف بـ«**الإلهيّات بالمعنى الأعمّ**»، وهذا أهمّ مائز لتمييز الآيات «**المحكمات**» من الآيات «**المتشابهات**» حيث ينقسم كلّ القرآن الكريم إلى هاتين المجموعتين الرئيسيتين. فقد قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ**﴾(١).

والغرض الذي دعانا إلى الوقوف قليلاً على المثال المذكور هو التعرّف على أهمّ عنصر من عناصر «**التكوين القرآنيّ**»، الذي بالكاد لا تجد موضوعاً فيه إلّا وتظهر فيه هذه الحقيقةُ بشكل جليّ.

ومن هذه المواضيع التي تشملها هذه الحقيقة هو موضوع «**الرجل**» و«**المرأة**»، فمثلاً: قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾(٢)، حيث نجد هذه الآية الكريمة من صنف المحور الثاني، وقد تمسّك الكثيرون بهذه الآية المباركة في أفضليّة الرجل على المرأة.

---

(١) سورة آل عمران / ٧.

(٢) سورة النساء / ٣٤.

ولكن مع التوجّه إلى آية أخرى من آيات الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، حيث هذه الآية الكريمة من صنف المحور الأوّل، فسنجد تمثيلاً قِيَميّاً مختلفاً عن الآية السابقة، وبهذه الآية من صنف المحور الأوّل سوف تسقط دعوى أفضليّة «**الرجل**» على «**المرأة**» بلحاظ «**الرجولة والذكورة**» المختصّ بالمحور الثاني، ليحلّ محلّها لحاظ «**التقوى**» والذي هو من صنف المحور الثالث الذي سيأتينا الكلام عنه بعد قليل إن شاء اللّه تعالى، وسيتوجّه البحث أيضاً إلى النظر في لفظة «**قَوَّامُونَ**»، فهل هي دالّة على الأفضلية أم على مفهوم آخر؟!.

فهذا نحو من أنحاء الاشتباهات التي يقع فيها بعض المستوحين من المفكّرين والمثقّفين وبعض المتدبّرين والمفسّرين للقرآن الكريم أثناء دراستهم وبحثهم في مواضيع ومفاهيم هذا الكتاب العظيم.

والسبب في وقوعهم في الإشتباهات هو أنّهم ينطلقون في بحثهم ودراستهم في موضوع المرأة من المحور الثاني من دون أن يكون للمحور الأوّل دورٌ في تلكم الدراسة وذلك البحث، ومن دون أن يستحضروا المحور الأوّل دائماً وأبداً حين تدبّرهم وتفسيرهم للآيات الكريمة من صنف المحور الثاني، التي هي مرتبطة بها ترابط حبّاتِ العِقْدِ بعضها ببعض.

فإذا كان هذا شأنَ المنتمين إلى الإسلام في تفسيرهم وتدبّرهم وفهمهم للقرآن الكريم، فكيف يكون حال غير المنتمي إليه؟ وكيف

---

(١) سورة الحجرات / ١٣.

يكون حال المغرضين؟، فإنهم سوف يتمسّكون بالمحور الثاني، ويتمسّكون بما تدبّره وفسّره المسلمون من الآيات المتعلّقة بهذا المحور الثاني ويستعينون بهم للنيل من تشريعات الإسلام الحنيف، ومنه للنيل من شخصيّاته وأركانه.

فالحديث من خلال المحور الأوّل هو بحثٌ في فرع من فروع الرؤية الكونيّة، وهذا البحث من طبيعته تجاوز الأفراد وحدود شخصيّاتهم، وهذا يعني أنّه طرحٌ فوق مستوى شكل التمييز بين الجنسين، ويمكن أن نعبّر عنه بأنّه البحث عن الإنسان بالمعنى الأعمّ.

فلو اتّضحت الرؤية العامّة، والرؤية الكونيّة للإسلام حول المرأة لسهلَ الدخول في الآيات التي تناولت حقوق المرأة والرجل بشكل فرديّ أي: في مباحث الإنسان بالمعنى الأخصّ، ولانكشف ما وراء الآيات من معانٍ، حيث يفهم البعض من ظاهرها أنّها تُخِلُّ بالتوازن الاجتماعيّ للإخلال بحقوق المرأة.

وعلى الرغم من أنّ المحورَ الثانيَ من المحاور الأساسيّة والمهمّة في القرآن الكريم إلّا أنّه يبقى مفتقراً إلى المحور الأوّل دائماً وأبداً، ومحتاجاً إليه في تفسير آياته، وتوضيح معانيه، وكشف ملامحه، وبيان مقاصده.

المحور الثالث: الحديث عن الصفات الإنسانيّة من الفضائل والرذائل

وهذا البحث بطبيعته في «**القرآن الكريم**» يتناول الإنسان من خلال صفاته التي يتحلّى بها، نظراً إلى أنّ الصفات التي تندكّ في وجوده هي التي سوف يكون لها الأثر في تحديد شخصيّته، وقيمته الاجتماعيّة

في النشأة الدنيويّة، وكذلك يكون لها الأثر في تحديد مصيره ووجهته بعد موته، فالإنسان وإن كان مالكاً لفعله، وله السلطنة على تشكيله كيفما يشاء، إلّا أنّ ملكيَّتَهُ له محدودة بحدود النشأة الدنيويّة، وسلطنته مقيّدة بقيود زمانها، فإنّه بمجرّد مفارقة روحه الدنيا، وانتقاله إلى نشأة جديدة يُصبِحُ مملوكاً لفعله، وتتحوّل السلطنة إلى عمله عليه.

وفي هذا المحور سنجد القرآن الكريم يتحدّث عن الصفات الإنسانيّة بلحاظ صدورها من الإنسان من حيثيّة المصالح والمفاسد، في النشأة الدنيوية فقط تارةً، وهذا ما نسمّيه بأحاديّة الرؤية والمنشأ، وأخرى بلحاظ صدورها منه من حيثيّة المصالح والمفاسد، في النشأتين الدنيويّة والأخرويّة معاً، وهذا ما نسمّيه باندماجيّة الرؤية والمنشأ، ويبيِّن القرآن الكريم مختاره في الموضوع بحسب ما تملي على هذا الموضوع المتطلّباتُ الواقعيّة.

والإنسان من خلال مسيرته في الحياة يكتسب مجموعة من الفضائل أو الرذائل أو كلتا المجموعتين، فلذا اهتمّ القرآن الكريم بهذه الجهة اهتماماً ملحوظاً، حتى تكاد لا تجد آية إلّا وهي في مقام ترسيخ فضيلة أو في مقام المعالجة لرذيلة.

واختلف مسلك القرآن الكريم عن مسلك سائر كتب الأخلاق التي هي أيضاً تتناول ترسيخ الفضائل ومعالجة الرذائل ببعض اللحاظات المهمة، منها:

١ـ أنّ كتب الأخلاق إنّما تقوم بالترسيخ والمعالجة للصفات من خلال الحديث عن نفس الصفة، إلّا أنّ القرآن الكريم سلك مسلكاً آخرَ، فكان حديثُهُ عن الصفة الخُلُقِيَّةِ من خلال الحديث عن المتلبّس بها.

٢ ـ أنّ كتب الأخلاق وبشكل عامّ نظرت إلى العائد والناتج لصفة الفضيلة والرذيلة في الإنسان بلحاظ المصالح والمفاسد، في النشأة الدنيويّة فقط، ولكنّ القرآن الكريم نظر إليهما بلحاظ النشأتين معاً، بل وكان نظره إلى النشأة الدنيويّة بملاحظ القانون العامّ الموجود في الكون والعالم والوجود في عين وجود القانون الماديّ الطبيعيّ الذي هو محلّ نظر القانون الوضعيّ، وأصحاب الكتب الأخلاقيّة المعروفة بشكل عامّ.

فإذا كانت هناك فضيلَةٌ قد أحاطت بها تلك الكتب بالمدح والثناء، وبيَّنت أهميّتها وآثارها على الإنسان المتّصف بها، ودعت الإنسان إلى التحلّي بها، وإذا كانت رذيلةٌ تحدّثت عن مساوئها والآثار الوخيمة التي تترتّب على ارتكابها، ودعت الإنسان إلى التخلّي عنها، واجتنابها وهكذا، فإنّ القرآن الكريم قام بذكر الأشخاص والشخصيّات الذين تَحَلَّوْا بالصفات الحسنة، وذكر الأفراد الذين اتّصفوا بالصفات السيّئة، فندب الإنسان إلى الإقتداء بالمتحلّين بالفضائل، وحذّره من اتّباع أهل الرذائل، ونهج في هذا المنهج سبلاً عديدة لإظهار حقيقة الصفة، وذلك من خلال بيان آثار فعل الإنسان على النشأتين بسبب صفاته وأخلاقه من جهة، وإلى بيان آثار فعله في النشأة الدنيوية بلحاظ القانون التكوينيّ المحيط بالقانون الماديّ الطبيعيّ، وبيانِ عاقبته وجزائه بسبب أعماله، مروراً بموقعه من الوجود جرّاء ما تجذّر في نفسه وفكره من اعتقاد، أو ظهر منه من سلوك متجذّر في نفسه، وهذا المحور من أهمّ المحاور القرآنيّة التي تتجلّى في نصّه بأسمى الدروس، وأرقى التعليمات، وأعظم الإرشادات، لترتقيَ بالفرد والمجتمع إلى أرقى مستويات الرقيّ، تحقيقاً للسعادة الأبديّة، وإنجازاً للحضارة الإنسانيّة.

إختيار طريق البحث:

وأمّا ما يختصّ بالبحث الذي يتناوله هذا الكتاب، والذي سيشكّل خريطته؛ فإنّنا سوف نعتمد المحور الثالث فيه. وأمّا المحور الثاني، فإنه سيأتي الذكر عنه بشكل تلقائيّ لأهميّته.

وفي مقام الاختيار فقد بيّنّا أنّ المِحورَ الثانيَ وحدَهُ غيرُ كافٍ للانطلاقِ منه في الحديث عن المرأة في نظر الإسلام، واختيارنا في هذا البحث هو للمحور الثالث، لكونه طريقاً جامعاً يجمع الإنسان والصفة معاً في رؤية موحّدة، حيث ننظر إلى الإنسان بلحاظ صفاته إضافةً إلى النظر إليه بما هو هو، إذ لا يمكن الفصل بينهما حقيقةً وخارجاً، وإن كان الأمر قابلاً ذهناً ومفهوماً.

إنَّ الحديث في مكانة المرأة في القرآن الكريم من خلال المحور الثالث سوف يقودنا إلى نتائجَ لا يقودنا إليها المحورُ الأوّلُ، إذ في المحور الثالث نتائجُ عمليّةٌ مباشِرةٌ، وهي من شأنها أن تساهم في بناء الفرد والجماعة، وهذا من أهمّ ما يميّزه عن المحور الأوّل حيث فيه غلبة النتائج الفكريّة، الذهنيّة، والتي هي بحدِّ ذاتها تحتاج إلى اقتران عناوينَ أخرى بها، ومفاهيمَ جديدةٍ لأجل إنزالها إلى الواقع العمليّ، هذا إضافةً إلى مصادفتنا فيها لمسائلَ أخرى تزيد من تعقيدها، وصعوبتها، وإفرازاتها في الحورات.

معرفة مكانة المرأة وحقوقها في القرآن الكريم من خلال المحور الثالث

إنّ القرآن الكريم يزخر بذكر الرُّسل والأنبياء، ويذكر مواقفهم التي وقفوها أمام أهل الرذائل، فمن خلال التدبّر في كتاب اللّه تعالى سوف

نجد أنّه تحدّث عن صفات يمكنها أن تكون صفاتٍ ترقى إلى مستوى معطيات الرؤية الكونيّة، فتكون المحورَ الأساسيَّ والقاعديَّ لدراسة الرسول والنبيّ من القرآن الكريم، وعليه نرجع إلى الآيات الشريفة التي تحتمل عدّة احتمالات في تفسيرها وتوجيهها، والقرآن الكريم قد اصطلح على النوع الأوّل من الآيات الشريفة بـ«**المحكمات**» واصطلح على النوع الثاني من الآيات الشريفة بـ«**المتشابهات**»، وقد تقدّمت الإشارة إليها آنفاً.

وكما بينّا أنّ القرآن الكريم لا يتحدّث عن الصفات بما هي هي، بل يتحدّث عن المتلبّسين بها، فإنّنا بهذه الحالة سَنُصادفُ الكثير من العناوين والصفات التي أوردها هذا الكتابُ الإلهيُّ في حقّ الأنبياء والرُّسل والأوّلياء، وسنلاحظ أنّ القرآن الكريم لا يذكرُ الصفة ثُمَّ يقومُ بمدحها أو ذمِّها، بل إنه يذكرُ المتلبِّس بها، ويأمرُ العباد باتّباعه أو باجتنابه، فإليك بعضها:

المخلِص: قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[1].

المخلَص: قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[2].

المتقي: قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة / ١٣٩.

(٢) سورة مريم / ٥١.

(٣) سورة التوبة / ٧.

السابق: قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(١).

المُقَرَّب: قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾(٢).

الصِّدِّيق: قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(٣).

الصادق: قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٤).

الشكور: قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾(٥).

مسلم: قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٦).

الصابر: قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٧).

المتوكِّل: قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٨).

ونكتفي بهذا القدر من ذكرِ بعض المفاهيم والعناوين والصفات

---

(١) سورة الواقعة / ١٠ - ١١.

(٢) سورة آل عمران / ٤٥.

(٣) سورة مريم / ٥٦.

(٤) سورة التوبة / ١١٩.

(٥) سورة الزمر / ٦٦.

(٦) سورة آل عمران / ٦٧.

(٧) سورة الزمر / ١٠.

(٨) سورة إبراهيم / ١٢.

الواردة في القرآن الكريم، وإلّا فهناك الكثير منها فيه، ولكن لنأخذ عنواناً واحداً من تلكم العناوين والصفات المذكورة في القرآن الكريم نموذجاً، ولنسلّط عليه بعض الضوء، الذي سيشكِّل موضوعَ بحثِنا الأساسيّ، وهذا العنوان المختار لبحثنا هذا -إن شاء اللّه تعالى- هو: «**الصالح**» و«**الصالحين**».

الفصل الثاني

صفة «الصالح»
منصب أم مقام؟!

معنى الصلاح:

لغةً:

«**الصلاح**» صفة ضدّ الفساد، وهي تدلّ على صحيح بما تقتضي طبيعة الشيء من دون دخالة شيء زائد عن طبيعته فيه، وإلّا فإن صار شيء مدخولاً في طبيعته صار فاسداً وخرج عن كونه صالحاً[1].

أو كما ذكرها العلّامة ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري ٧/ ١٦١) بقوله: «**الصلاحُ صفةٌ تشملُ خلال الخير**».

وقد ذكر أهل اللغة هذا المعنى فقد قال الراغب الأصفهاني في (مفردات غريب القرآن، ص ٢٨٤):

«**صلح: الصلاح ضد الفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال وقوبل في القرآن تارةً بالفساد وتارةً بالسيّئة...**».

(١) محصل كلام الأعلام في تفسيرهم ومعاجمهم، فراجع على سبيل المثال: (الميزان في تفسير القرآن) للعلّامة الطباطبائي: ١٥/ ٢٨٦.

وقال في تعريف الفساد (ص٣٧٩):

«**فسد: الفساد خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويُضادُّه الصلاحُ ويُستَعْمَلُ ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة...**».

الصالح:

الإنسان «**الصالح**» لا تكون في وجوده صفة أخرى داخلة فيه وهي خارجة عن طبيعة صفة الصلاح، وإلّا فإنّ دخول صفة غريبة عن طبيعة الصلاح تُخرج المرءَ عن كونه صالحاً.

فعليه يمكننا أن نقول: إنّ «**الصالح**» هو ذلك الشخص الذي أوصل ذاته إلى مرتبة علميّة وعمليّة بحيث لا تشوبها شائبة تفسدها، وتخدش فيها بما تُخرِجُهُ عنها، وهذا يعني أنّه أوصل نفسه إلى مرتبة من مراتب الطاعة الإلهيّة -العلميّة والعمليّة- بحيث لا يوجد فيها ما يفسد عليه هذه الطاعة، وهي ما يعبّر عنها الأعلام بـ«**استقامة الحال على نحو الاعتدال**»، أو بـ«**الصلاح النفسيّ والذاتيّ**» [1]، أو «**مستقيم الحال في نفسه**» [2]، حيث مفاده التلبّس والتحقّق بصفة الصلاح بحيث تصل الذات إلى رتبةٍ تكون هي «**صالحةً**» لا أن تكون متّصفةً بالصلاح فقط، وهذا يكونُ تمييزاً له عن «**صلاح العمل**» الذي مفاده التلبّس بالصفة، واتّصاف العمل بالصلاح، وهو لا يُفيد تلبّس الذات بصفة الصلاح.

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٣٠٣.

(٢) الطبرسي، أمين الإسلام أبي علي بن الفضل، تفسير مجمع البيان: ٦/ ٣١.

الفرق بين الاتّصاف والتلبّس (التحقّق):

مع الاعتماد على تعريف «الراغب الأصفهاني» للضدّ، فإنّ الخروج عن صفة الاعتدال (التي هي الصلاح) يوجِبُ خروجَ المرءِ عنه إلى الفساد، فالصالحُ من كان وجودُهُ محافظاً على الاعتدال.

كيف ذلك؟

فنقول في الجواب على ذلك.. إنّ الصفات تنمو وتتخلّل في الإنسان على ثلاثِ مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة الحال

وفي هذه المرتبة تكونُ الصفةُ في الإنسان على نحو الحمرة التي تعتري خدّه حين الخجل.

مثال ذلك:

كالجمرة التي تضعها في النار لفترة بسيطة جدّاً ثمّ تخرجها، فإنّها ترجع إلى حالتها الأولى.

الشاهد:

إنّ صفة الكرم والجود في صاحب هذه المرتبة ليست إلّا كالحمرة والجمرة، فإنّه إذا صادف موقفاً يحتاج فيه الفقير إلى مساعدة، فإنّك تراه يتردّد ويضرب الأخماس في الأسداس إلى أن يُخرج من جيبه بعضَ المساعداتِ، وقد لا يفعل.

الملاحظة على المرتبة:

نلاحظ على هذه المرتبة عدمَ صدورِ الصفاتِ إلّا بعدَ جهد.

المرتبة الثانية: مرتبة المَلَكة

وهنا تتغلغلُ الصفةُ في شخصيّتِهِ، فتصدُرُ الصفةُ عنه برويّة ومن دون تكلّف.

مثالُ ذلك:

أنَّ الجمرةَ في هذه الحالة تضعها لفترةٍ أطولَ في النار، فتشاهد النار وقد بدأت تتغلغل في الأعماق شيئاً فشيئاً، فيصبح سطحها أحمرَ، إلّا أنّك إذا أخرجتها من النار فإنّها لن ترجع إلى طبيعتها بالسرعة التي عادت إليها في المرتبة الأولى بل سوف تأخذ فترةً أطول.

الشاهدُ:

أنّ صفة الكرم والجود في صاحب هذه المرتبة تأخذ لها في شخصيَّته مكاناً، وما حصل هذا إلّا بعد أن عوَّد صاحبُها نفسه بالعلم والتطبيق على البذل والعطاء، فأصبحَ تحصَلُ منه المساعدات بشكلٍ أكثر ليونةً وسرعةً من صاحب المرتبة الأولى.

ولكن تبقى هذه الحالة مرهونةً بالبيئة والظروف والحالات النفسيّة، أي: هي قابلة للتغيّر والزوال بسبب العوامل المذكورة.

الملاحظة على المرتبة:

نلاحظ على هذه المرتبة صدور الصفات من دون تكلّف، إلّا أنّه أيضاً يلاحَظُ عليها أنّها قابلةٌ للزوال إذا ما تعرّضت لظروف اجتماعية يعيشُها صاحبها بحيث يفقُدُها بالتدرّج.

المرتبة الثالثة: مرتبة التحقّق

وهنا تتخلّل الصفة في وجوده وشخصيّته بشكلٍ أعمقَ، فتندكّ فيه اندكاكاً شديداً وعميقاً بحيث لا يمكن للمرء أن يفرّق بينه وبين الصفة، ففي هذه الحالة يكون قد تلبّس بالصفة، وأصبح مؤهّلاً لأن ينادى بالصفة من دون الحاجة إلى نسبتها إليه.

مثالُ ذلك:

أنّ الجمرة إذا وُضعت في النار لفترة طويلة جدّاً فإنّها تأخذ حكم النار، فإذا أردت إخراجها فإنّك لن تُخرجها كما هي، بل ستتحوّلُ إلى رماد.

الشاهدُ:

أنّ الإنسانَ إذا عوَّد نفسه على الكرم والجود لفترة طويلة، فإنّه حينئذٍ لن يُقال له: إنّه متصف بصفة الكرم والجود؛ كلّا، بل يُقال عنه: جاء الجواد وجاء الكريم، ففي هذه الحالة أصبحت الصفة مندكّةً في شخصيّته إلى درجة أنّك لا تميِّز بينها وبين شخصيّته. فالنبيّ الأكرم ﷺ كان يُلقَّب في مكّة المكرّمة قبل البعثة بـ«**الصادق**» وبـ«**الأمين**».

الملاحظة على المرتبة:

نلاحظ على هذه المرتبة اندكاكَ الصفةِ بالموصوف، فلا يمكن ملاحظة الفرق بينهما، ونلاحظ في المتّصف بها أنّه هو من أوصل نفسه إلى مثل هذه المرتبة، وعرَّضَ ذاته لآثارها.

ولا يَرد في البَيْن إشكاليةُ انسلاخِ الإرادةِ والاختيارِ عن الإنسان

بتحقّق الصفة فيه، إذ «**الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار**»، فمن عرَّض نفسه للدهنيّات ومن دون تخلّل الموانع من الإصابة بالجلطة، فإن هذا لا يعني أنّ الإنسانَ كان فاقداً لاختيارِ المقدّماتِ المُسَبِّبَةِ مستقبلاً للجلطة، فالنفس إن جُبلت على شيء مضت فيه، والإنسان مُطالَب بأن يجبل نفسه على الخيرات والفضائل، حتى يصلَ حالُهُ إلى تمكّن الفضيلة من نفسه، وهو أمر ممدوح عقلاً، وشرعاً، وعُرفاً، ووجداناً.

إشارة مهمّة:

هنا تجدر الإشارة إلى أنّ أصحاب المراتب الثلاث قد بذلوا المساعدةَ للفقيرِ، إلّا أنّ الاندفاعَ الذي نجده في أنفسهم مختلفٌ من مرتبة إلى أخرى، فتدبّر. كما أنّ في كلّ رتبةٍ درجاتٍ مختلفَةً يختلفُ بعضُها عن البعضِ الآخرِ، شدّةً وضعفاً.

تطبيق المراتب على الصالح:

هناك من الناس من لا يتّصف بصفة الصلاح، وهناك من يتّصفُ بها، وأمثال هؤلاء تختلف درجة تغلغل صفة الصلاح فيهم، ويتباين ظهورها، وتختلف تجلِّياتها.

فهناك مَنْ حاله حال المرتبة الأولى «**الحال**»، وهناك من حال الصفة فيه على نحو «**المَلَكة**»، وهناك من تحوَّل إلى شخص آخر يختلف عن الآخرين، بحيث أصبح هو بنفسه وذاته «**الصالحَ**»، لا أنّه متّصفٌ بالصلاح، فانتبه إلى الفرق.

وقد قرّر السيّد العلّامة في ميزانه هذا المعنى بقوله:

«فإذا تأمّلتَ ذلك حقَّ التأمّلِ قضيت بأنّ الصلاحَ ذو مراتبَ بعضُها فوقَ بعض...»[١].

الصفات ليست منصباً:

من البداهة أنّ صفاتِ الفضيلةِ لا تخضعُ لنظام المنصبِ الذي يُحدَّد بحدود وتعيينات. فإذا انتهينا إلى القول: إنّ الصلاح صفة فضائليّة، فإنّ هذا يعني أنّ هذه الصفةَ متاحةٌ لسائر البشر، فهي غير مقتصرة على فئة معيَّنة دون أخرى. وإذا قلنا: إنّ الصلاح منصب، ففي هذه الحالة ليس بالضرورة أن يطمع فيها الناس، وليس بالضرورة أن يتخلّق بها كلّ إنسان.

ومن هنا سيرد السؤال الآتي المهمّ: هل «**الصالح**» المتلبّس بالصلاح مقتصر على الأنبياء والرُّسل والأوصياء أم أنّه يشمل كلّ معاشر البشر؟.

هذا ما سيأتي تفصيلُهُ لاحقاً إن شاء اللّه تعالى من خلال معرفة الرؤية القرآنيّة.

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٥/ ٣٠٥.

صفة «الصالح» في القرآن الكريم..
مقام وليست منصباً

كما ذكرنا سابقاً، نجدُ أنَّ القرآنَ الكريمَ ليس كالكتب الأخلاقيّة التي لا ترى أمامها إلّا الصفات لتمدحَها أو لتذمَّها. فهو كتاب يرى أنّ المتلبِّسَ بصفات الفضيلة والمتحَلِّيَ والمتحقِّقَ بها هو من يستحقّ المدح، والثناء، والرّفعة، والذي تلبَّس بصفات الرذيلة هو ذاته يستحق الذمّ والقدح.

فالتلبّس هو ما يحقّق ذات الفرد، وبالتالي يحقّق كيان المجتمع. وبالتلبّس بالفضائل تُمنَحُ النفسُ القيمةَ الحقيقيّةَ، لكونها تستمدّها من قيمة الفضيلة، حينها يرفَعُ شأنُها بين سائر الأفراد في المجتمع.

وإنَّ التحقُّقَ بصفات الفضائل، لَيؤكّدُ على إمكانيّةِ تلبُّسِ الجميعِ بها، فلا ينظرَنَّ أحدٌ إلى نفسه بأنَّه خارجٌ عن دائرة عظماء الوجود بخصوصِ هذا المضمار، وهذه الحقيقة هي التي تُشعرُ الإنسانَ بأنْ يكونَ ذا طموحاتٍ عاليةٍ جدّاً، طموحات نستطيع أن نقول عنها في الوقت الحالي: أنَّها «**لا متناهية**»، وكمالاتٌ غيرُ محدودة، وهذا ما سنتعرَّف عليه عن قربٍ إن شاء اللّهُ تعالى في الأوراق القادمة.

ونعلَمُ جيّداً أنّ «**الصالحَ**» شخصٌ قد تلبّس بصفة الصلاح، وهنا ينبغي الالتفات إلى أنّ إطلاق القرآن الكريم هذا الاصطلاح على

شخصٍ، يعني أنّه شخص وصل في الصفات المعنويّة والعقليّة والسلوكيّة مراتبَ عاليةً جدّاً، وأصبح شخصاً في قمّة الحضارة والسعادة الإنسانيّة، وستَتَّضِحُ هذه الحقيقة بعدَ قليلٍ إن شاء اللّه تعالى لدى تناولنا للآيات الكريمة من القرآن الكريم.

ومن خلال نصوص القرآن الكريم يتبيَّن أنّ صفةَ «**الصلاح**» مرجعُها الفضيلةُ، لا المنصبُ، وهذا يعني أنّ الأحكام التي تُلحَقُ بالفضيلة من حيث الرّتب، ومن حيث الظهور والتجلّي ستُلحَقُ بـ«**الصلاح**»، لكونِهِ مفردةً من أهمِّ مفرداتها، وفرداً من أهمِّ أفرادها، ومفهوماً من أهمِّ مفاهيمِها.

معنى المقام:

ومن هنا يُعتبَرُ المتلبِّسُ بالصلاح -في العُرف الإسلاميّ واصلاً إلى ما يُعرف بـ«**مقام**» «**الصالح**». والمقام وصف يلحق بالصفات، وليس بالمناصب؛ لكونه قد أُخِذَ فيه البقاءُ في تلك الصفة بعد التلبّس بها فترةً معتدّاً بها، وهو يعني: الإقامةَ في صفة الفضيلة إقامةً تُمكّنُ الإنسانَ من الفعل برويّة، وبلا تكلّف.

ونودّ أن نلفت انتباه القارئ إلى مسألة مهمّة جدّاً وهي: أَلَّا يتصوَّرَ حينما يُصطَلَحُ على الصفاتِ بصفةِ «**المقام**»، أنْ بين هذا وبين صفاتِ الفضيلةِ اختلافاً، كلا؛ فكلّ منهما عين الآخر، غيرَ أنَّ اللّحاظَ الذي لوحظ حين إطلاق اصطلاح «المقام» هو مستوى التلبّس بصفة الفضيلة، ودرجة التحقّق بها، فلذا يمكن أن يقال: إنّ هذا متّصف بصفة الجود، ولكن هل هو متحقّق بها إلى درجة الإقامة فيها، والحصول على رتبة عالية منها في التمكّن في النفس أم لا؟.

والجوابُ: أنَّ هذا ليسَ مِحرَزَ التحقّق.

كما نلفت انتباه القارئ إلى أنّ صفاتِ الفضيلةِ ليست إلّا صفاتٍ تُحقِّقُ في الإنسانِ الإنسانيّةَ، فمن كان فاقداً لصفات الفضيلة في نفسه، كان فاقداً للإنسانيّة.

ومع النظر إلى كلمات الأعلام سنجدهم يتّفقون على أنَّ «**الصلاحَ**» من المقامات العالية جدّاً في السير والسلوك المعنويّ إلى اللّه تعالى، وهو يُعتبَرُ أيضاً من حيث القرب إلى اللّه تبارك وتعالى من المراتب والمقامات الأكثر تجلّياً لأسمائه سبحانه وتعالى ولصفاته الكماليّة، وسيأتينا إثباته لاحقاً إن شاء اللّه تعالى.

والآن لِندخلْ إلى القرآن الكريم، لنجدَ ما جاء فيه حول صفة «**الصلاح**» و«**الصالحين**»، فنقول: إنّه يمكننا بلحاظ معطَيات الآيات الكريمة لموضوع «**الصلاح**» و«**الصالحين**» أن نقسِّمَها إلى ثلاثِ طوائفَ وهي:

الطائفة الأولى من الآيات:

تتحدّث عن أشخاص الأصل فيهم هو «**الصلاح**»، فهم «**الصالحون**»:

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

(١) سورة التحريم/ ١٠.

(٢) سورة البقرة/ ١٣٠.

وكرّر الكتاب العزيز نفس المطلب في سورة النحل/ ١٢١، وفي سورة العنكبوت/ ٢٧.

وقال تعالى على لسان النبيّ محمّد ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[3].

وجاء في حقّ الجنِّ أيضاً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾[4].

قال تعالى في النبيّ عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[5].

وقال تعالى في النبيّ يحيى عليه السلام: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف/ ١٩٦.
(٢) سورة الأعراف / ١٦٨.
(٣) سورة الأنبياء / ١٠٥.
(٤) سورة الجن / ١١.
(٥) سورة آل عمران / ٤٦.
(٦) سورة آل عمران / ٣٩.

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

قال تعالى في النبيّ لوط عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٢).

وقال تعالى في حقّ الأنبياء إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤)، وكان ذلك استجابة من اللّه تعالى لدعوة النبيّ إبراهيم عليه السلام لما دعا اللّه سبحانه، فقال في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٥).

فهذه الآيات المباركة نزلتْ لتبيِّنَ وجود أشخاصٍ قد وصلوا إلى رتبة «**الصالحين**»، وتحقّقوا بالصفة، وتجاوزوا مرتبة الاتّصاف بها فقط.

الطائفة الثانية من الآيات:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾(٦).

وقال تعالى في النبيّ يونس عليه السلام: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنعام / ٨٥.

(٢) سورة الأنبياء / ٧٥.

(٣) سورة الأنبياء / ٨٥- ٨٦.

(٤) سورة الصافات / ١١٢.

(٥) سورة الصافات / ١٠٠.

(٦) سورة الأنبياء / ٧٢.

(٧) سورة القلم / ٥٠.

وهذه الطائفة من الآيات القرآنيّة الشريفة تتحدّث عن «**الجعل الإلهيّ**»، أي: أنّه تبارك وتعالى هو من يجعل بعضَ الأنبياءَ صالحين، وبقطع النظر عن نوعيّة الجعل الإلهيّ في الآية الكريمة، هل هو جعل تشريعيّ اعتباريّ أم هو جعل تكويني؟، فإنّ الذي يهمّنا الآن هو أنّ مفاد الآية الكريمة هو أنّ هناك من الناس من تمتدُّ اليد الإلهيّة إليه، فتنقله من مرحلة معنويّة إلى مرحلة معنويّة أخرى[١].

كما لا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الجعل الإلهيّ ليس اعتباطيّاً بل هو قائم وفق قانون وناموس إلهيّ في طبيعة الوجود، فإنّ ما يصدر من الإنسان من أفعال هو علّة للإفاضة عليه بفيوضات ترفع من شأنه، ومكانته، وتنقله من حال إلى آخر.

وهنا استشعار بلحوق عناية إلهيّة للأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، حيث فيها لسان الامتنان عليهم بجعلهم «**صالحين**». ونؤكّد هنا، أنّ هذا الامتنانَ منه سبحانه وتعالى لا يحصلُ إلّا بتحقّق الشروط اللازمة في حقّ الطرف الثاني، كما تقدّمت الإشارة إليه.

الطائفة الثالثة من الآيات:

تتحدّث عن بعض الأنبياء والرُّسل وهم يدعون اللّه تبارك وتعالى أن يرزقهم اللحاق بالصالحين.

قال تعالى على لسان النبيّ يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ

---

(١) هذه الصيرورة ليست إلى النبوّة، فإنّ الآيات تتحدّث عن الأنبياء حين كونهم أنبياء، وأنّ اللّه تعالى صيَّرهم صالحين، أو جعلهم منهم، فإذا قال: أنت نبيّ وقد صيّرتك وجعلتك نبيّاً، فمثل هذا القول لغو، ولا يصدر من حكيم، إلّا على مبنى من قال: إنّ هذه الصيرورة هي إلى مرتبة غير النبوّة.

ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1].

وقال تعالى على لسان النبيّ إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2]، مع أنّه عليه السلام مُنح رتبة «**الصالحين**» بجعلٍ إلهيّ، كما مرَّ ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾[3].

فهنا في هذه الطائفة تلاحظ الدعاء من النبيين عليهما السلام ليلحقهم اللّه تبارك وتعالى بالصالحين.

ملحوظة مهمّة لدفع سؤال محتمل:

هنا قد تتساءل عن حقيقة هذا الدعاء الذي يصدر من نبيّين لهما مقام «**المخلَصين**»، فكيف يمكن تصوّر ذلك، وخاصّة إذا نظرنا إلى أبي الأنبياء وهو الخليل عليه وعلى جميع الأنبياء والرُّسل وعلى نبيّنا وآله افضل الصلاة والسلام، فهنا قد تقول:

أليس النبيّ في نفسه صالحاً، لكونه نبيّاً أم ماذا؟!.

وهنا لا بأس بتوضيحٍ مهمٍّ لأجل رفع توهُّمٍ قد يرد إلى الذهن، فنقول:

لا شكّ ولا شبهة في كون النبيّ في نفسه صالحاً؛ إلّا أنّنا لو لاحظناه بالنسبة إلى نفس صفة «**الصلاح**» بما تحتويه من الكمالات

(١) سورة يوسف / ١٠١.
(٢) سورة الشعراء / ٨٣.
(٣) سورة الأنبياء / ٧٢.

الإلهيّة المطلقة، والدرجات الرفيعة، والمراتب الجليلة فإنّ الدعاء من الأنبياء في هذه الحالة يستقيم، ويكون له معنى، لكون التجلّي الأعظم بحقيقة «**الصلاح**»، والاتّصاف بكمال صفة «**الصلاح**» بما هي مقام من مقامات القرب الخاصّ إلى اللّه تعالى غيرَ متحقّق لجميع البشر بالفعل، بما فيهم الأنبياء عليهم السلام. نعم، هو مبذول لهم، وبعبارة أخرى يُقالُ: إنّ مقام «**الصالح**» درجات، ومراتب لامتناهية، والسبب في اتّصافه بعدم التناهي هو لاتّصاله باللّه تعالى، فيمكن تسمية أصحاب المرتبة الدنيا منها بـ«**الصالحين**»، في الوقت الذي نسمّي أصحاب المرتبة العليا والقصوى بـ«**الصالحين**» أيضاً، وكلتا التسميتين تسميتان حقيقيّتان صحيحتان، ولا يُقال: إنّ تسمية أصحاب المرتبة الدنيا تسمية مجازية.

ويمكن تقريب المطلب وتصويره من خلال الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(١)، فالنظر إذا كان إلى المقامات العالية فإنّه يجعل المرء في حالة العرفان بالفقر الحقيقيّ، ورغبته تكون دوماً في حصوله على الغنى، والتحقّق به، ولكن مع النظر إلى المراتب التي هي دونه فإنه غنى حقيقيٌّ، وكمال متحقّقٌ.

ونظر الأنبياء عليهم السلام في مثل هذه الحالات هو دائماً وأبداً إلى أعلى درجات القرب، وأعظمها تجلّيًا للكمال المطلق، وأروعها بهاءً، فهم عليهم السلام وإن كانوا في أنفسهم «**صالحين**» إلّا أنّهم عليهم السلام عندما يشاهدون بعضَ تجلّيات الكمال المطلق، فإنّهم يجدون المقام الذي هم فيه وكأنهم «**فقر**»، بل إنّهم كذلك بلحاظ «**الغنيِّ المطلق**» على

(١) سورة القصص / ٢٤.

حدِّ تعبير الآية الكريمة المتقدّمة على لسان النبيّ موسى عليه السلام. وكما نعلم جيّداً أنّ من يشاهِدُ نفسَهُ فقيراً، فإنّه يطلب الغنى، كذلك من يشاهد التجلّيات العظمى للصالحين الأعلى مقاماً، فإنه يطلب ويدعو أن يتحقّق بها، ويرى نفسه وما يملكه من تجلّيات مقام الصالحين المناسبة لمرتبته وكأنّها لا شيء أمام تلك التجلّيات العظمى لنفس المقام.

ويؤكِّدُ على هذه الحقيقة دعاءُ النبيّ إبراهيم عليه السلام على رغم وصوله إلى مقام الصالحين بالجعل الإلهيّ، كما مرّ، إلّا أنّه يدعو اللّه تعالى أن يُلحقه بالصالحين، وإلى هذه الحقيقة أشار العلامة الطباطبائي في تفسيره بقوله:

«ثمّ إنك إذا تأمّلت حال إبراهيم ومكانته في أنه كان نبيّاً مرسلاً وأحد أولي العزم من الأنبياء، وأنّه إمام، وأنّه مقتدى عدّة ممّن بعده من الأنبياء والمرسلين، وأنّه من الصالحين بنصّ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[1]، الظاهر في الصلاح المعجَّل على أن من هو دونه في الفضل من الأنبياء أُكرِمَ بهذا الصلاح المعجَّل وهو عليه السلام مع ذلك كلّه يسأل اللحوق بالصالحين، الظاهر في أنّ هناك قوماً من الصالحين سبقوه وهو يسأل اللحوق بهم فيما سبقوه إليه، وأجيب بذلك في الآخرة كما يحكيه اللّه تعالى في ثلاثةِ مواضعَ من كلامه حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]، وقال تعالى:

(١) سورة الأنبياء / ٧٢.

(٢) سورة البقرة / ١٣٠.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١]، **وقال تعالى:** ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢]، **فإذا تأمّلت ذلك حقّ التأمّل قضيت بأنّ الصلاح ذو مراتب بعضها فوق بعض ولم تستبعد لو قرع سمعك أن إبراهيم عليه السلام سأل اللُّحوق بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وآله الطاهرين عليهم السلام، فأُجيب إلى ذلك في الآخرة لا في الدنيا؛ فإنّه عليه السلام يسأل اللُّحوق بالصالحين ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم يدّعيه لنفسه. قال تعالى:** ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٣]، **فإنّ ظاهر الآية أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يدّعي لنفسه الولاية، فالظاهر منه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هو المتحقّق بالصلاح الذي يدّعيه بموجب الآية لنفسه، وإبراهيم كان يسألُ اللّه اللّحوقَ بعده من الصالحين يسبقونه في الصلاح فهو هو»**[٤].

وإنَّ هذا الأمر لَيفتحُ علينا باباً إلى موضوعٍ آخرَ لنقول: ثَمَّةٌ فرق بين «**النبوة**» وبين «**الصالح**»، وسيأتي بيانه لاحقاً إن شاء اللّه تعالى.

ولأجل توضيح ما تقدّم نضرب المثال الآتي:

إنّك لتلاحظ الاختلاف الموجود بين «**المصابيح**» في شدّة الضوء الصادر منها وضعفه، كما تلاحظ أيضاً ضوء الشمس الشديد، فإنّك تقول عن كلّ الدرجات المختلفة في الإضاءة والإنارة من المصباح والشمس: هذا ضوء.

فعلى رغم التفاوت الموجود في المقام الواحد «**الضوء**» في كلّ

---

(١) سورة العنكبوت / ٢٧.

(٢) سورة النحل / ١٢٢.

(٣) سورة الأعراف / ١٩٦.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١ / ٣٠٥.

من درجاته ومراتبه، فإنّك تصفها كلّها بوصف واحد، ولا يُعدُّ وصفُكَ لأدنى المراتب مجازاً، ولأعلاها حقيقةً، فكذلك الحال في مقام «**الصالحين**»، فإنّك تصف كلّ الداخلين فيه بوصف واحد على رغم وجود تفاوت في الدرجات والمراتب في نفس المقام، فلا ضير إذن من إطلاق لقب «**الصالح**» على ذي الدرجات الأولى منه، كما يطلق على صاحب المقام العالي جدّاً منه.

وتجد مثلَهُ على اختلافه في الدرجات والمراتب مقاماً آخرَ من المقامات المعنويّة، فـ«**التقوى**» مقام من مقامات العروج إلى اللّه تبارك وتعالى، ولكن لو نظرنا إليها بذاتها نجد أنّ لها درجاتٍ ومقاماتٍ عديدةً، والناسُ متفاوتون في درجاتها ومراتبها فيه، فلا ضيرَ أن نطلق على صاحب المرتبة الدنيا أنّه متّقٍ، وفي الوقت نفسه نطلق على صاحب المرتبة العليا أنّه مُتَّقٍ، كما هو الحال في إطلاقنا لهذه الصفة على أولياء اللّه تعالى.

والقرآن الكريم لا ينفكّ عن بيان مثل هذه الحقائق التي لها شأن الدرجات والرّتب. فلاحظ آيات «**الإيمان**» في الكتاب العزيز التي يتجلّى فيها اختلاف المراتب والدرجات، ويمكن لكلّ تالٍ للقرآن ملاحظتها بشكل واضح ويسير.

وإتماماً للفائدة، إليك إشارةً فيما جاء في القرآن الكريم في موضوع «**الإيمان**»..

قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[1].

(1) سورة الأنعام/ 82.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[(١)].

ومعلومٌ أنَّ الشِّركَ ظُلْمٌ. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[(٢)].

فهذه الآية تبيِّن وجود أناس يؤمنون باللّه عزَّت قدرته، إلّا أنّهم ألبسوا إيمانهم بشرك به سبحانه وتعالى -والمراد منه الشرك الخفيّ، وهو غير شرك العبوديّة (الجليّ)-.

فالآيتان تتحدّثان عن الإيمان، إلّا أنّ الأولى تتحدّث عن إيمان ذي درجة ومقام لا تشوبه شائبة الشرك، والثانية تتحدّث أيضاً عن إيمان، إلّا أنّه إيمان ذو درجة وشائبة مشوب بشائبة الشرك الخفيّ.

لفتة قرآنيّة جميلة..

والجدير بالإشارة هنا وجود آية في القرآن الكريم فيها دعوة اللّه تبارك وتعالى لرُسُله بالعمل الصالح..

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[(٣)].

ولن تجد في الكتاب العزيز دعوةً نظيرَ هذه الدعوة.

وإنَّ هذا بحدِّ ذاتِهِ لَيؤكِّدُ على كون مقام «**الصالحين**» درجاتٍ ومقاماتٍ متعدِّدَةً، ومختلفةً.

---

(١) سورة يوسف / ١٠٦.

(٢) سورة لقمان / ١٣.

(٣) سورة المؤمنون / ٥١.

فلاحظ في هذه الدعوة عدم ذكرِهِ سبحانَهُ وتعالى فيها «**الإيمانَ**» كما هو معتادٌ ذكرُهُ فيه مقترناً بالعمل الصالح، كما ستأتي النصوص الدالّة على ذلك، ولعلّ عدمَ ذكرِ «**الإيمان**» هنا هو لكونهم عليهم السلام واجدينَ لهُ، ومتّصفينَ به، وهو أمرٌ لا خلافَ عليه، ولعلَّ عدم ذكره كان لدفع توهُّمٍ قد ينقدح في الذهن بعدم وجدانهم عليهم السلام له، بل ويدفع توهّماً محتملاً آخر وهو الانقداح في الذهن بأنّهم قد يكونونَ واجدين لأدنى المراتب منه، وحينها يحتاجُ المقام إلى بيان إضافيّ للرتبة الإيمانيّة التي حازها هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، ولكنَّ عدمَ الذكرِ البتّة أوجبَ الركون إلى كونهم ليسوا من أولئك الذين حازوا الأدنى من رتبة الإيمان، بل إنَّهُمْ في موضعٍ عالٍ جدّاً من الإيمان.

نعم، يبقى الكلام في نفس رتبة النبوّة والرسالة والإمامة، كما هو النبيّ إبراهيم عليه السلام. أهُمْ في رتبة واحدة أم متعددة؟، فقد تكفّلت الآيات القرآنيّة الأخرى بذلك، فلا تنافيَ بين قولنا: إنّ للإيمانِ مراتبَ ودرجاتٍ، وبين قولنا: إنّ الأنبياء بالنسبة إلى سائر الناس في أعلى المراتب، وإنّهم في الوقت نفسه على مراتبَ بالمقارنة والنسبة فيما بينَهم.

ومعلوم أنّ (**العمل**) يلازمه الرؤيةُ الكونيّةُ، بل إنّه من نتاجها، ومفرزاتها، والعمل الصالح بنفسه يقبل التدرّج في المراتب بلحاظ تدرّج المعرفة فيه، وعدم انفصالها عنه[١].

---

(١) فلمثل الأنبياء الأمر واضح وجليّ من كون الأمر باللازم (العمل الصالح) يعني الأمر بالملزوم (اليقين)، وهذا الملزوم ليس بالنحو المتصوّر والمتاح فهمُهُ لكافّة الناس، بل هو ممّا يتناسب مع مستوى فهمهم، وقدراتهم العقليّة التي تفوق القدرات العقليّة لسائر البشر، ولعلّ عدم ذكر الملزوم هنا هو لرفع التوهّم المحتمل الذي قد يرد إلى ذهن من لا معرفة له بخطاب المرسِل لرسوله. فقد يتبادر إلى ذهنه فيعتقد بارتفاع الإيمان عنهم =

وهذه الدعوة الإلهيّة للرُّسل لا تعني أنّهم عليهم السلام لا يعملون الصالحات، بل إنّ الخبير بالمعارف القرآنيّة يدرك أنّ في نفس مقاماتهم العالية درجاتٍ ومراتبَ متفاوتةً، قال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

فلا يُمنَعُ من الدعوة للتزوّد بما يرفع الرُّسلَ والأنبياءَ إلى مقامات أعلى وأعظم.

أَضِفْ إلى ما ذكرناه أنَّ العمل الصالح الذي يتناسب مع مستوى مقام الرُّسل لَمُختلف كثيراً عن العمل الصالح الصادر من عامّة الناس، من قبيل التصدّق والعطاء اللّذين مرَّ ذكرهما فيما تقدّم الكلام في بيان ترسّخ الصفات في النفس، والمنظورُ لدى اللّه تعالى هو حقيقةُ العملِ القائمةُ على مدى ترسّخ الصفات في النفس ومدى عمقها من جهة، وعلى عمق رؤيتهم ومعرفتهم من جهة ثانية، وليس المنظور لديه سبحانه وتعالى ظاهرَ وشكلَ العمل الذي لا تختلف فيه صلاةُ وعبادةُ

= والدعوة هي لاسترجاعه، أو قد يعتقد بضعفه والدعوة هي لتقويته، والأمر ليس هذا وذاك، وقد يلحظ الأمر بلحاظ الزيادة وطلب المزيد من حيث القوّة والاشتداد، وليس بالضرورة أن تكون الزيادة عن ضعف مطلق، وتتأكّد هذه الحقيقة من خلال معرفة الأنبياء بما يريده الباري تبارك وتعالى من عباده، فالمطلوب هو العمل إلّا أنّه ليس كلَّ عملٍ بل الصالح منه، وهذا العمل بهذا القيد لا يتأتّى إلّا بحيازة ما يؤهّله لوصفه بالصالحٍ، وهذا لا يكون إلّا من خلال المعرفة السليمة، وهي بنفسها قابلة للزيادة، والمعرفة (كما تعلم) غيرُ الإيمان، أضف إلى أنّ المطلوب للباري الكيف وليس الكمّ، فمع مثل هذه القرائن نعرف أنّ المراد من الـ«العمل الصالح» في الآية الكريمة هو الملزوم، وليس اللازم، والرسول يعرف مراد المرسِل للعلقة الشديدة بينهما كما اتّضح، هذا بلحاظ العمل المتعلّق بالرسول ومُرسلِهِ، ولكن يمكن أن يلحظ الأمر بلحاظ تعلّقه بالرسول والأمم ففي هذه الحالة يكون متعلّق الخطاب الدعوة والتبليغ، فيمكن حينها حمل معنى العمل الصالح عليهما.

(١) سورة البقرة/ ٢٥٣.

أعظمِ نبيٍّ على الإطلاق وهو نبيّ الإسلام ﷺ عن صلاة وعبادة أكبرِ منافق.

البشريّة دليل الاشتراك والإمكان:

وهنا نودُّ الإشارةَ إلى أنّ هناك خاصيّةً مشتركةً بين الأنبياء والرُّسل والأوصياء وبين سائر الناس، وبهذه الخاصيّة المشتركة كان فتح باب الكمالات في التحقّق بالصفات السامية. فالبشريّة ليست أمراً ناظراً إلى الجهات المختصّة التي يمكن لها أن تميّز المتّصف بها، بل هي صفة تشمل كلّ من تجمع بين أفراده صفات معينة مختصّة بهم فقط دون سائر المخلوقات، وهي تتضمّن في نفسها ما لدى المتّصف بها من المؤهّلات للعروج إلى أقصى درجات الكمال الممكن، وهذا على غير ما عليه صفة «الإنسان»، فإنّها تحمل في دلالتها بعض التمييز، لذا لا نجد القرآن الكريم يصف الأنبياء بهذه الصفة، ولم ينقل لنا عبارة على لسان الأنبياء وهم يصفون أنفسهم بهذه الصفة، على رغم تكرار وصفهم لأنفسهم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1].

وكأنّ القرآن الكريم يودّ أن ينبّه كلّ البشر بأنّ من ترقّى من بني جنسكم إلى ما ترقّى إليه، فإنّكم أيضاً تحملون مثل هذه القابليّات والمؤهّلات (مِثلَهُ) للوصول إلى مقاماتٍ عاليةٍ جدّاً، وعليكم استكشافها في جبلّتكم، فحينها سترون العجائب. فكأنّ مخاطبة الأنبياء أقوامهم بهذه الكيفيّة لأجل تحفيزهم إلى الالتفات إلى

(١) سورة إبراهيم: ١١.

الطاقات الجبّارة الكامنة في صميم تركيبتهم الوجوديّة، وجعلها تتفجّر من بين الجوانب لتحقّق في هذه النشأة هدف الخلقة.

المحصّلة..

إذن.. ننتهي إلى نتيجة مهمّة وهي:

أنّ مقامَ «**الصالحين**» مقامٌ ذو درجاتٍ متعدّدة.

وأنّ من يكون في الدرجة الدنيا منه يُقال عنه: إنّهُ صالحٌ، مثلما يقال عن المتحقّق بالعليا منه: إنَّهُ صالحٌ أيضاً.

وأنّ الأنبياء على درجات مختلفة فيما بينهم، ويوجد بينهم تفاضل على رغم إطلاق صفة «**النبوّة**» عليهم جميعاً على حدٍّ سواء، على الأدنى منهم عليهم السلام فضلاً، أم على الأعلى منهم عليهم السلام فضلاً، وهذا بنفسه يُوضِحُ دعاءَ بعض الأنبياء عليهم السلام أن يرزقَهُ اللّحاق بالصالحين، أو أن يجعلَهُ من الصالحين، بمعنى أن تتحقّق فيهم صفة الصلاح المطلق، الذي هو أعظم وأسمى تجلٍّ لصفات اللّه تعالى ولأسمائه المباركة.

فلا مانع من أن يدعوَ النبيُّ عليه السلام طلباً للمزيد من كمالات الصلاح العالية، اللامتناهية.

إنسداد الباب أم فتحه

ومن خلال النصوص المتقدّمة في موضوع (**الصالح**) و(**الصالحين**)، ومن خلال فهمنا للآيات المباركة مع تفاسيرها، سيصادفُنا سؤالٌ مهمٌّ جدّاً مفاده أنَّهُ:

بما أنّ مرتبة «**الصالحين**» العالية من مراتب القرب الإلهيّ، وقد استكشفنا ذلك من خلال دعاء الأنبياء عليهم السلام وطلبهم من اللّه تعالى أن يرزقهم الدخول إليه، والكون من أفراده، فهل يعني ذلكَ أنَّ بابَ الدخول إلى مرتبة ومقام (**الصالح**) و(**الصالحين**) مقتصرٌ على الأنبياء والرُّسل والأوصياء فقط؟!.

فهل هو مسدود علينا نحن الذين لسنا أنبياء، ولا رسلاً، ولا أوصياء، ولا أئمّة؟!.

فلأجل أن يتّضح الجواب لا بدّ من بيان الفارق بين «**النبوّة**» و«**الصلاح**»، فإلى هناك..

«النبوّة» و«الصالح»:

من خلال تتّبع النصوص الإسلاميّة -القرآن والسُّنَّة- فإنّنا لن نحتاجَ إلى بذلِ جهدٍ فكريٍّ لمعرفة الفارق بين «**النبوّة**» و«**الصلاح**»، فأمامَنا مجموعةٌ من التعابير والعبارات التي تساعدنا على معرفة هذا الأمر. ومعلوم أنّ «**الأسماء في أصل الوضع هي على التباين...**» (١).

ولنختصر الحديث هنا بالرجوع إلى «**القرآن الكريم**»، لنعرفَ من خلاله ما نستفهِمُهُ الفارقَ بينهما، فنقول:

أوّلاً: إنّنا لا نجد في النصوص القرآنيّة طلباً ولا دعاءً صادراً من الناس أن يكونوا «**أنبياءَ**» أو «**رسلاً**» أو «**أوصياءَ**»، بل ولا نجد الأنبياءَ عليهم السلام يدعون اللّه تعالى أن يرزقهم ذريَّةً تكونُ أنبياءَ، فها هو النبيّ زكريا عليه السلام يدعو اللّه تعالى ويقول كما في قوله تعالى:

(١) طبل / الدكتور حسن، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيّة، الصفحة ٢٢.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(٢).

وليست الوراثة هنا للنبوّة، كما أنّ الـ(**وليّ**) من المفاهيم التي تتضمّن معنى (**المقام**) وليس المنصب، وإلّا لو قلنا بأنّ «**النبوّة**» قابلةٌ لأنْ تُوَرَّثَ لأصبح كلّ من هو من ذريّة الأنبياء والرُّسل الذكور منهم والإناث أنبياءَ ورسلاً، وهذا ما لم يقل به أحد البتّة.

ثانياً: ونشاهد في المقابل وجود نصوص قرآنيّة تتضمّن دعاءً وطلباً صادراً من الأنبياء والرُّسل والأوصياء أن يكون من الصالحين -كما تقدّمت الإشارة إلى الآيات المباركة-، فها هو النبيّ يوسف عليه السلام يدعو اللّه تعالى أن يُدخِلَه في الصالحين.

قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٣)، فلو كان مقام «**الصالحين**» مرادفاً للنبوّة لكان طلب ودعاء النبيّ يوسف عليه السلام لغواً؛ حاشاه، إذ يكون عليه السلام في هذه الحالة طالباً أمراً هو حائز عليه، -وقد تقدّمت الإشارة إلى هذه المطالب سابقاً، وهذا بلحاظ ذاتهم عليهم السلام.

(١) سورة آل عمران / ٣٨.
(٢) سورة مريم / ٥- ٦.
(٣) سورة يوسف / ١٠١.

وأمّا بلحاظ ذريّاتهم فنجدهم عليهم السلام يطلبون من اللّه تعالى أن يرزُقَهم ذريَّةً تنتمي إلى حزب الصالحين، كما هو الحال على لسان النبيّ إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

بل ومن جهةٍ أخرى، وهي بلحاظ عامّة الناس؛ نشاهد وجود نصوص قرآنية تتضمّن دعاءً وطلباً على ألسنتهم أنْ يمنحَهُمُ اللّه تعالى التوفيقَ للوصول إلى رتبة ومقام «**الصالح**»، وأنْ يُصبحَ الداعي فرداً من أفراد «**الصالحين**». وسيأتي تفصيلُهُ لدى ذكر الشواهد القرآنيّة في الطائفة الأولى حول هذه الحقيقة بعد قليل إن شاء اللّه تعالى.

أضف إلى ما ذكر، أنَّ اللّهَ تعالى وعد من يتحلّى بالإيمان والعمل الصالح أن يُدخِلَهُ في حزب الصالحين، وسيأتي تفصيله فيما سنذكره من الشواهد القرآنيّة في الطائفة الخامسة إن شاء اللّه تعالى إثباتاً لهذه الحقيقة، وهي عدم انسداد الباب على البشر، وعدم اختصاصه بالأنبياء والرُّسل والأوصياء.

ثالثاً: لم نجد في ثقافة الناس، أو حتّى في أذهانهم فكرة أن يصبحوا أو يصبح أحد من أفرادهم نبيّاً أو رسولاً أو وصيّاً، فلو كان الأمر ممكناً لظهر لنا ذلك، ولنُقِل لنا عبر التاريخ أنّ أباً قد شجّع ابنه على الدخول في سلسلة الأنبياء، كما لم نجد مدارس أُنشئت لتدريب وتعليم الناس لأن يصبحوا ضمن السلسلة النبويّة وأختيها، ولدوِّنت في هذا النصوص التي وردتنا من اللّه تعالى عبر كتبه «**التوراة**» و«**الإنجيل**» و«**الزبور**» و«**القرآن**»، فهذا بنفسه كافٍ للقول بأنَّ تلكَ العناوينَ الثلاثةَ «**النبوّة**» وأختيها ليست مُتاحةً لكافّة الناس، بل هي أمور بيده سبحانه

(١) سورة الصافات / ١٠٠.

وتعالى فقط، يهبها، ويعطيها للخواصّ من بني البشر، وطبعاً ضمنَ ضوابطَ دقيقةٍ ومحدّدةٍ يُحدّدها اللّه تعالى.

المنصب والمقام:

إنَّ الارتكاز الذهنيّ المنتزَع من سيرة الأمم والشعوب على اختصاص الألقاب الثلاثة ببعضِ بني البشر، وأنّه من مختصّات الجعل الإلهيّ، إضافةً إلى الاستعانة بالنصوص القرآنيّة الكاشفة عن هذه الحقيقة، لَيقودُنا إلى الرأي القائل: إنَّ «**النبوَّةَ**» وأختيها ليست إلّا «**منصباً**» إلهيّاً، وإنَّ «**الصالح**» وما هو بحكمه ليس إلّا «**مقاماً**»، و«**مرتبةً**»، و«**درجةً**»، والفرق بينهما هو:

أنّ «**النبوّة**» غير واقعة في مراحل طيّ المراتب المعنويّة التي يقطعها العبد إلى اللّه تبارك تعالى، وإن كانت في نفسها لا تقبل أن يلبسها أحدٌ إلّا ذوي النفوس العالية من الرتب المعنويّة، وهي لم تُجعَلْ كمرتبةٍ أو كمقامٍ يقبلُ أن يصلَ إليه أيُّ سالكٍ إلى اللّه تعالى طريقَ الخيرِ والرشادِ، وإلّا لوجدنا مدارسَ قائمةً -كما أشرنا إليه قبل قليل- وتدريساً على أشدّه (وأَتَمِّهِ) يبذلُ فيه التلامذةُ جهدهم للوصول إلى النبوّة، والفوز بها.

إلّا أنّ مرتبة «**الصالح**» -كما اتّضح- تُعتبَرُ «**مقاماً**». وهذا الاصطلاح «**المقام**» كما هو في تداولات أهله من العلماء يُعتبَرُ محلّاً معنويّاً، يوصلُ الفردُ السالكُ المجاهدُ نفسه إليه، فيُقيمُ فيه إقامةً يرجو بها عدمَ زوالِ الصفةِ التي وصل إليها بعد طول المجاهدة -كما أشرنا إلى هذا سابقاً-.

فالأخلاق التي دُعي الإنسان إلى اكتسابها تتفاوت درجاتها من شخص إلى آخرِ من حيث الشدّة والضعف، بل ولو لاحظ كلّ واحد منّا نفسه لوجد أنّهُ يحمل صفاتٍ أخلاقيّةً -سلبيّةً أو إيجابيّةً- تختلف كلٌّ منها عن الأخرى في الشدّة والضعف. فقد يكون المرء شجاعاً بدرجة معيّنة، إلّا أنّه في صفة الجود يكون أكثر اتّصافاً من الشجاعة، وهكذا..

وقد أشرنا فيما سبق إلى المراحل التي تمرّ الصفات الخُلقية بها عندَ الإنسان في حياته، من حال، ومَلَكة، وتحقّق. فالمرتبة العليا التي يصل إليها الإنسان، وتُصبِحُ الصفة الخُلقيَّةُ فيه متأصّلةً، ومتَّحدةً مع وجوده، يصطلح عليها بـ«**المقام**»، فكأنّه أقام في تلك الصفة فترةً حتى أصبحت جزءاً من وجوده.

فاصطلاح «**المقام**» يتضمن في نفسه السيرَ والسلوكَ إليه تبارك وتعالى، ويُعتبرُ طيّاً للمراحل في الصفة الأخلاقيّة علماً وعملاً، ولكن النبوّة غيرُ متاحةٍ للناس، بحيثُ إنَّهُمْ إن شاؤوا العروجَ والوصولَ إلى «**النبوّة**» ما عليهم سوى أخذ مسالكِ السيرِ والسلوكِ العلميِّ والعمليّ، فهذا ما لم يَقُلْ به أحدٌ من العلماء الأوّلين والآخرين من كافّة الطوائف الإسلاميّة، بل وحتّى أتباع الديانات السماويّة كما مرّت الإشارة إليه قبل قليل.

والذي يؤكّد على هذه الحقيقة ما جاء في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[1]، وكما هو

(١) سورة النساء/ ٦٩.

معلوم أنّ الواو العاطفة إذا دخلت أفادت المغايرة، فلو كانت «النبوّة» و«مقام الصالحين» أمراً واحداً لما وُضعا في نفسِ العَرْض، ومجيءُ لفظ «**الصالحين**» بعد لفظ «**النبيّين**» بتوسّط لفظَي «**الصدّيقين**» و«**الشهداء**» بينهما يؤكِّدُ ذلك.

وبعد اتّضاح الفرق بين المنصب والمقام تتَّضِحُ العلاقة بينهما، فالمقام أمرٌ ليس ملازماً للنبوّة والرسالة والوصاية، بل هو قد يجتمع معه، كما هو الحال في أغلب الصفات الكماليّة التي تتحلّى بها تلكم الذوات المقدّسة، وقد يفارقه كما هو الحال في درجات الشدّة والقوّة، في درجات الكمال.

ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى:

إنَّ كلَّ نبيٍّ صالحٌ.

وليس كُلُّ صالحٍ نبيّاً.

وبعبارة أدقّ نقول: إنّ «**النبوَّةَ**» قد اصطبغت بالصبغة المنصبيّة، وإنَّ «**الصلاح**» مقام قد اصطبغ بالصبغة التكامليّة.

الشواهد القرآنيّة:

والقرآن الكريم يقدّم لنا ما يؤكّد على ما قدّمناه قبل قليل من البيان حول انفتاح باب الدخول في جملة «**الصالحين**»، وعلى عدم انسداده، وعلى إمكانيّة الانضمام إليهم، وهو يؤكّد على كون «**الصالح**» مقاماً وليس منصباً، فإليك هذه الحقيقةَ من خلال الآيات المباركة، وسيكون ذلك بتقسيمها إلى خمسِ طوائفَ:

الطائفة الأولى من الآيات: الرغبة والدعاء

ففي هذه الطائفة من الآيات نستكشف وجود ارتكاز ذهنيّ لدى البشر مفاده: أنّ مقامَ الصالحينَ يمكنُ الوصول إليه، وعدم وجود مانع للحصول عليه، ومرجع هذا الارتكاز هو الفطرة، والآيات المباركة تكشف لنا هذه الحقيقة.

الشاهد الأوّل:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

بتقرير: أنّ الأبوَينِ يتمنّيانِ أن يرزقَهُما اللّهُ تعالى «**صالحاً**»، وهذا ليس صادراً من نبيٍّ أو رسولٍ أو وصيٍّ، بل هو صادر على لسان عامّة الآباء.

الشاهد الثاني:

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢).

بتقرير وتقريب: أنّها وردت على لسان القسّيسين والرهبان من النصارى.

الشاهد الثالث:

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف / ١٨٩.

(٢) سورة المائدة / ٨٤.

(٣) سورة التوبة / ٧٥.

بتقرير: أنّ العهد صدر من عامّة النصارى.

الشاهد الرابع:

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

بتقرير: أنّ الآية تتحدّث على لسان عامّة الناس.

وهذه الآيات في مقام الكاشفيّة عن وجود قناعة لدى الإنسان تؤكِّدُ له إمكانيّةَ الوصول والحصول على المقام، ولو لم يكن مقام الصالحين قابلاً للحصول عليه لما كان للدعاء أو الطلب أو الرغبة معنى، والدليل على ذلك كما قدّمناه هو: أنّنا لا نجدُ في القرآن الكريم آيةً فيها طموح لدى الناس لأن يصبحوا أنبياء، بعكس ما نجد من تعلّق طموحاتهم بأن يكونوا «صالحين» أو من «**الصالحين**»، وهذا ما أوجبَ عدمَ الفرق بين الأنبياء والرُّسل والأوصياء وبين سائر الناس في الدعاء والطلب للحصول أو الوصول إلى مقام «**الصالحين**»، فدعاء الجميع واحد موحَّد.

الطائفة الثانية من الآيات:

من أهمّ ما يتميَّز به الإسلام في أحكامه وقوانينه هو أنّها تخاطب جميع الناس بلسان واحد على حدٍّ سواء، وهذا ما يُعرف في الاصطلاح بـ«**اشتراك الأحكام بين العالم والجاهل**»، ونجد أيضاً عدمَ استثناء الإسلام في أحكامِهِ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، والإمام عليه السلام، وكلَّ قياديٍّ في هذا الدين الحنيف.

(١) سورة المنافقون / ١٠.

وإنَّ هذا الاشتراك لَيُؤكِّدُ أنّه لو كان المقام كالمنصب لما اشتركت أحكامه بين أعظم نبيٍّ وبين أبسط مكلَّف، بل لوجدنا تلكم الأحكام مختصَّةً فقط بمن وصل وصار من «**الصالحين**»، كما هو الحال بالنسبة إلى من يكون نبيّاً أو رسولاً أو وصيّاً حيث توجَدُ لهم أحكامٌ خاصّةٌ، وهي تختصّ فقط بمن كان نبيّاً أو رسولاً أو وصيّاً، ولا أَوَدُّ أن أخوضَ في هذا الموضوع بإسهاب لكونه سيأتينا بحثُهُ لاحقاً عندما سنتناول الآياتِ الواردةَ بهذا الصدد في الفصل القادم إن شاء اللّه تعالى.

الطائفة الثالثة من الآيات:

إنّ القرآن الكريم يدعونا إلى الإقتداء بالنبيّ ﷺ، وهو ﷺ، ممّا لا يُشكّ فيه، على رأس قائمة الصالحين، وإمامُهم، وانطلاقاً من هذه المسلّمة البديهية العقليّة والنقليّة نقول:

إنَّهُ يستحيل عقلاً ويمتنع شرعاً أن يدعوَ اللّه تبارك وتعالى الناسَ كافّة إلى الإقتداء بمن هو إمامُ الصالحين مع علمه سبحانه باستحالة الوصول إليه، فحينئذٍ يكون سبحانه قد أمر بالمستحيل، والأمرُ بالمستحيل ممّا أطبق العقلُ والنقلُ على استحالة صدورِهِ منه سبحانه وتعالى.

ولكون اللّه تبارك وتعالى حكيماً، وأحكامه عين العقل؛ فإنّ أمرَهُ بالاقتداء بالصالحين دليلٌ على عدم الاستحالة، ودليلٌ على إمكانية الوصول إليه، والحصول عليه، وهو يعني عدمَ اختصاصِ المقامِ بأحدٍ، واشتراكَهُ بين الجميع، وبعبارةٍ أخرى يعني: عدمَ انسداده.

الشاهد الأوّل:

قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[١].

وما كان من مختصّاته ﷺ كوجوب القيام بصلاة الليل مثلاً؛ فقد ورد فيه بيانُ الاختصاصِ ولم ينسحب الحكمُ على بقيّة الأمّة، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[٢]، وجاء في تفسير هذه الآية: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي: زيادةً لك على الفرائض، وذلك أنّ صلاةُ الليلِ كانت فريضةً على النبيّ ﷺ، مكتوبةً عليه، ولم تُكتَبْ على غيرِهِ، وكانت فضيلةً لغيرِهِ، عن ابن عباس[٣].

الشاهد الثاني:

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[٤].

وقد اتّفقت كلمة المسلمين قاطبةً على أنّ طاعةَ النبيّ ﷺ تتلخّص بقوله وفعلِهِ وتقريرِهِ، مؤسّساً لتشريعٍ أو مُمضياً لتصرّف فرديّ أو جماعيّ، على نحو الوجوب أو الاستحباب، أو الحرمة أو الكراهة، أو الإباحة.

ونجد من خلال هذا الاستعراض السريع للمسألة أنَّ الأعمَّ الأغلبَ من الأحكامِ الواردةِ في الشريعة المقدّسة من قِبَلِ النبيّ ﷺ

---

(١) سورة الأحزاب / ٢١.

(٢) سورة الإسراء / ٧٩.

(٣) الطبرسي، أمين الإسلام ابي علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ٦ / ٢٨٣.

(٤) سورة النساء / ٥٩.

كانت مشترَكَةً بين كلّ من يقول «**لا إله إلّا اللّه**»، ولم تكن مختصّة به ﷺ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنَّ الدعوة إلى طاعة النبيّ ﷺ بحدِّ ذاتها دليلٌ على إمكانية الوصول، فإنّ الأمر بالاتّباع فرع الإمكان.

ومن هنا نستطيع أن ندرك جيّداً أنّ الدعوة حينما تتوجّه إلى المسلم أو العباد باتّباع النبيّ ﷺ، فإنّها في عين نظرها إليه ﷺ مبعوثاً من قِبَل اللّه تعالى، (حيث إنّ هذه الحيثيّة توجب الحجِّيَّة لكلّ ما يصدر منه أو عنه)، فإنّها تلحظُ فيه حيثيّةً أخرى وهي التي تُعلِّلُ الاقتداءَ والتأسّيَ به ﷺ، وتشرحُ وتُوضحُ إمكانيَّةَ الوصول، وهي الحيثيّة التي كانت هدفاً للنبيّ إبراهيم عليه السلام متمثِّلاً بالوصول إلى مقام «**الصالحين**».

وينبغي الالتفات هنا إلى مسألة مهمّة جدّاً وهي: أنّ حديثنا هنا في إمكانيّة الوصول إلى مقام الصالحين، وليس البحث في كيفية الوصول، كما أنّه لا يُنظَرُ إلى عدد الواصلين، والمهمّ هو أنّ الأدلّة والنصوص تُثبتُ فتحَ باب الوصول إلى مقام الصالحين، ويبقى على المكلّف تكليفُهُ، وطموحُهُ، وسعةُ أُفُقِه.

الطائفة الرابعة من الآيات:

نجد في القرآن الكريم أفراداً ليسوا من الأنبياء ولا من الرُّسل ولا من الأوصياء قد وصلوا إلى مقام الصالحين.

الشاهد الأوّل:

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

(١) سورة الأعراف / ١٦٨.

وهذا ما جاء في حقّ بني إسرائيل -اليهود-، الذين لم يكونوا جميعاً أنبياء.

الشاهد الثاني:

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾(١).

وهو على لسان الجنّ، والذي في هذه السورة تأكيد على وجود رسول بُعث من اللّه تعالى، الأمر الذي دعا الجنّ إلى الانشداد، والقول بكلِّ هذه المقولات، فأثبت الجنّ أنّ فيهم صالحين.

الشاهد الثالث:

وقال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٢).

حيث كان هذا وصفاً للأُمّة القائمة من أهل الكتاب، وهم ليسوا أنبياء.

فلو كان المقام مختصّاً بالأنبياء لما صحّت نسبته إلى من ليسوا من الأنبياء، وأيضاً لو كان مستحيلاً لما تمكّن الذين ذكرتهم الآيات المباركة المتقدّمة من الدخولِ فيه، والوصول إليه، والحصول عليه.

الطائفة الخامسة من الآيات:

وهنا الآن نجدُ تجلِّيَ حقيقةِ ما ذكر في الطوائف الأربع من الآيات المتقدّمة، فلاحِظْ ما جاء في الكتاب العزيز، فإنّه يدلّ على إمكانيّة

(١) سورة الجن / ١١.

(٢) سورة آل عمران / ١١٤.

الوصول إلى مقام الصالحين، وعلى عدم انسداد باب الولوج فيه، وعلى عدم اختصاصه بفئةٍ دون أخرى.

الشاهد الأوّل:

قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾[1].

فإنّ مجرّد القول ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ كافٍ للقولِ بإمكانيّةِ الوصول إلى مقام الصالحين، والآيةُ مُشعِرَةٌ بوجود دعوة إلى الدخول إلى مقام «**الصالحين**»، ويؤيّده الغفرانُ المتعقِّبُ للتوبة والرجوع إليه تبارك وتعالى، وإنَّ الآيةَ الآتيةَ لأشدُّ وضوحاً.

الشاهد الثاني:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

فهنا أوضحت الآية الكريمة شرطَي الدخول إلى مقام الصالحين وهما: «**الإيمان والعمل الصالح**». فلو كان مقام الصالحين مختصّاً بالأنبياء فقط لما وعد اللّه تبارك تعالى من يحقّق الشرطَيْن أن يُدخلَهُ فيه، بل وتتبيّن لدينا دلالة أخرى وهي: أنّ مقام الصالحين غيرُ النبوّة والرسالة والوصاية.

ويُلفِتُ النظرُ إلى كلمة «**للأوّابين**» أي الراجعين، فالرجوعُ لا يكونُ إلّا من الموضع الذي يخرُجُ منهُ المرءُ، وهو يُرشِدُنا إلى مباحث «**الفطرة**»، حيث فيها أنّ الأصلَ في الإنسانِ هو الصلاح، إلّا أنّه ينحرف عن طريقه بسبب الاشتباه في معرفة وتشخيص مصاديق الكمال.

---

(١) سورة الإسراء / ٢٥.

(٢) سورة العنكبوت / ٩.

المحصّلة:

إنّ مقامَ الصالحينَ بحسب الرؤية القرآنيّة يُعتبرُ مقاماً عالياً، وهو من أعلى وأرقى وأعظم مقاماتِ القربِ إلى اللّه تعالى، وهو مقام تتجلّى على الواصلين إليه أسماءُ اللّه تبارك تعالى وصفاتُهُ عزَّ اسمُهُ، الجلاليَّةُ والجماليَّةُ في أروع صورِها وأبهاها. ويَصِحُّ التعبيرُ عنه بأنّه مقامُ «**الخلافة الإلهيّة**» الكبرى، لكونِ الخلافةَ الإلهيَّةِ متعلِّقَةً -كما ذكره الأعلام- بـ«**الإنسان الكامل**» الذي يتجلّى بأسماء اللّه تعالى وصفاته في أروع وأبهى صورها وأعلى درجاتها، والآيات الكريمة قد دلَّت على أنّ الإنسانَ الكاملَ يكونُ محطَّ نظرِ الأوّلياء وميزانِ الأعمال، وأدعية الأنبياءِ عليهم السلام واضحةٌ في تشوّقهم للدخول إلى مقام الصالحين، والدخول في زمرتهم، لكون نظرهم دائماً وأبداً إلى أرقى وأعظم الدرجات التكامليّة؛ لأنّها محلُّ إرادة اللّه تعالى، ورغبته في أن يتحقّق بها عبادُهُ.

واتّضح أيضاً أنّ الوصول إلى مقام الصالحين ليس مختصّاً بالنبوّة أو الرسالة أو الوصاية.

ملاحظة مهمّة:

والذي يلاحَظُ في الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر «**الصالحين**» هو عدم ورود نصّ قرآنيّ يتحدّث عن هذا المقام بصيغة المفرد، بل نجده دائماً يذكره بصيغة الجمع، وهو ما يجعل المرء يدرك أنّ الواصلين إلى هذا المقام مجموعةٌ من البشر، كما أنّه يُشعرُ المرءَ بأنَّ المقامَ قابلٌ لزيادةِ المنتمينَ إليه.

الفصل الثالث

موقع المرأة في مقام الصالحين في القرآن الكريم

مقام الصالح اختصاص أم شمول:

لقد تقدَّمَ منّا الحديثُ عن أنّ العلاقةَ بين منصب «**النبوّة**» وأختيها وبين مقام «**الصالح**» علاقةُ العموم والخصوص مطلق، وتبيّن لنا إمكانية ولوج هذا المقام من قِبَلِ سائر الناس، وأنّه ليس مختصّاً بأفراد دون أفراد، ولكن يرد هنا سؤال مهمّ مفاده:

هل أنّ مقام «**الصالحين**» مختصّ بالرجال فقط كما نجده من حال المنصب الإلهيّ، أم أنّه يشمل المرأة أيضاً؟!.

فإذا استطعنا الإجابة على هذا التساؤل فإنّنا نكون قد وضعنا أيدَينا على أساس جذريّ لحلّ أهمِّ إشكالٍ يرد على مكانة المرأة في الإسلام، ويفتح لنا أبواباً حقيقيّة إلى معارف القرآن الكريم لاستبيان مكانة المرأة فيها.

مقدّمة الجواب:

قد أشرنا سابقاً، إلى ما يتعلق بـ«**التكوين القرآنيّ**»، وبينّا أنّ معرفةَ

ذلك تشكِّلُ الأساس لفهم مضامين القرآن الكريم وإلّا وقع الإنسان في خلط وسوء فهم لآياته وسوره الشريفة، وهنا نقدّم نموذجين فقط، بحسب حاجة البحث إليهما، من دون تكرار ما تقدّمت الإشارة إليه حول «**المحكم والمتشابه**» الذي يدخل في صميم كلّ الأبحاث والمسائل القرآنيّة، وهو من المسائل التي لا يمكن لأيّ باحث تجاوزها أو التغافل عنها، وإلّا وقع في أخطر المحاذير التي تصرف الرؤية القرآنيّة عن مضامينها الحقيقية لتحلّ محلّها رؤية خاطئة.

نموذجا التكوين:

والنموذجان اللّذان نودّ تقديمهما هنا هما:

أوّلاً: الأسلوب الخطابيّ

ونَجِدُ ضرورةَ التنبّه إلى الأساليب البلاغيّة التي يستخدمها القرآن الكريم في آياته المباركة، فمن أهمّها أسلوب «**الالتفات**»، وهو من الأساليب التي إذا لم يلتفت إليها التالي لآياته، أو المتدبّر لعباراته، أو المفسّر لكلماته فإنّه سيذهبُ إلى غير مراد الكتاب العزيز، وإلى غير مقصده.

و«**الالتفات**» هو: «التحوّل من معنى إلى آخر، أو عن ضمير إلى غيره، أو عن أسلوب إلى آخر، وأوَّلُ من اصطلح هذه التسمية الأصمعي (ت: ٢١١هـ)...»[١]، وكان الزمخشري «... أول من بدأ

(١) مجلة التراث العربي / مجلة فصلية عن اتحاد الكتاب العرب / دمشق / العدد ٩٨ / السنة ٢٥ / حزيران ٢٠٠٥م.

التأصيلَ النظريَّ لظاهرة الالتفات...»[١]، وهو أيضاً «... أوّل من عُنِيَ ببيان القيمة الفنيّة لتلك الظاهرة...»[٢].

وهو ليس من المباحث السهلة التي قد يرغب المتدبّر أو الباحث تجاوزها، وعدم الاعتماد عليها، أو تهميشها، بل إنّه من المباحث المهمّة في القرآن الكريم، وأسلوب الالتفات يُعدّ «... من أكثر الظواهر البلاغيّة تردّداً وأوسعها انتشاراً في القرآن الكريم...»[٣]، وعلى رغم تشعّب الحديث فيه، واختلاف البلاغيّين فيما بينهم في كثير من مسائله، وخاصّة أنّه قد عُدّ من مهام ووظائف «**علم الأسلوب**» الذي يُعتبر عنواناً مستقلّاً بإزاء «**علم البلاغة**» ـ فإنّه على رغم ذلك ـ له من الأهميّة بمكان في تحديد، وتوجيه معاني الآيات الكريمة، ومقاصدها، وفهم دلالاتها.

فإليك بعضَ الأمثلة على ذلك:

١ ـ قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٤]، فالخطاب توجّه أوّلًا إلى النبيّ يوسف عليه السلام، إلاّ أنّك فجأة تلاحظ تحوّل الخطاب من المذكّر إلى المؤنّث، وهذا من المسائل البلاغيّة التي تُعرَفُ أساليب اللغة العربيّة بها.

ولكنك تجد هنا هذا الأسلوب المصطلح عليه بـ«**الالتفات**» واضحاً وجليّاً، وخاصّةً ورود الأسلوب ضمنَ سياقِ قرائنَ واضحةٍ

(١) طبل / الدكتور حسن، اسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيّة، الصفحة ٢٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) طبل / الدكتور حسن، اسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيّة، الصفحة ٦.
(٤) سورة يوسف / ٢٩.

جدّاً، وبالتالي يعرف المقصود منه، وقد يشبهه في الوضوح -مع أخذ القرينة الداخليّة في عين الاعتبار- تحوّل الخطاب من الجمع إلى المفرد أو العكس، أو من الحاضر إلى الغائب، أو العكس، وغيرها من الصور البلاغيّة لهذا الأسلوب الذي تتنوّع أغراضه.

٢- وقد تجد في الآيات السابقة او اللاحقة على الآية أو الآيات التي ورد فيها أسلوب الالتفات، أو من نفس الآية ما يوضح للتالي والمتدبّر والمفسّر المعنيّ في أسلوب الالتفات، وذلك بذكر الاسم أو الوصف أو ما يشبه ذلك، من قبيل قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[1]، فهنا نعرف بقرينة المقابلة بين الألفاظ أنَّ المقصودَ من الآخرة هنا باطن الدنيا.

٣- إلّا أنَّ المشكلةَ التي قد تواجهُ أولئك المفسّرين والمتدبّرين هي حين عدم ورود ذكر اسم أو وصف معيّن حتى يتوجّه الذهن إلى المقصود من الخطاب تلقائيّاً، ومن هنا يُحتاج إلى قرائنَ خارجيّةٍ عن نفس الآيات المتجاورة، فقد تكون تلكم القرائن في نفس السورة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾[2].

فالالتفات في الآية الثانية من الخطاب للحاضر إلى الماضي يجعلُ المرءَ يتساءلُ عن المقصود في الآية الثانية، ولكن مع التأمّل في مجمل السورة سيجد المتدبّر والباحث والمفسّر أنّهم النصارى واليهود، كما ذهب إلى هذا الرأي الشيخ الطبرسيّ (في مجمع البيان ٧/ ١١٢)، إلّا

(١) سورة الروم / ٧.

(٢) سورة الأنبياء / ٩٢ - ٩٣.

أنّ السيّد الطباطبائيّ وسَّع من دائرة المقصود منهم في الآية الثانية فبيَّن أنّهم كلّ من قطع التوحيد «... قطعاً متقطعة وزّعوه فيما بينهم أخذ كلّ منهم شيئاً منه وترك شيئاً كالوثنيّين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين على اختلاف طوائفهم...»[1]، ويمكن أن يقال: إنّ ما ذهب إليه الطباطبائيّ كان منتزَعاً من نفس السورة المباركة، فما جاء في السورة المباركة شكّل قرينة داخليّة وَضَّحَتِ المقصودَ منهم في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾.

٤- أو قد تكون هذه القرائن في سور أخرى، كما في الآية المباركة، قال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾[2]، إذ يُفهَمُ من خلال الآية الكريمة أنّ المخاطب فيها هو من تلقّى السورة من الوحي، إلا أنّنا من خلال القرائن القرآنيّة الداخليّة -فضلاً عن الخارجيّة- سيتبيَّن لنا أنّ المخاطَبَ فيه غيرُ المتلقّي للقرآن الكريم، فإنّ شأنَهُ التصديقُ المطلقُ، وشأنه الإيمان، وشأنه سلامة الفكر والعقل من كلّ خلل يشوبهما، والآيات الأخرى في القرآن الكريم التي تؤكّد حقيقة المتلقّي للوحي ﷺ، من قبيل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[3]، فمن يعتمده اللّه تعالى ويرسله بدينه ليدعو العالم إليه لا يكون من شأنه إلّا الإيمان والتصديق، فتعرف من خلال هذه القرينة وغيرها من الآيات الكريمة أنّ المقصود من الآية محلِّ الشاهدِ غيرُ النبيّ ﷺ.

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٤ / ٣٢٣.

(٢) سورة التين / ٧.

(٣) سورة التوبة / ٣٣.

٥ـ كلّ هذا بلحاظ القرائن اللفظيّة، إلّا أنّك قد تجد قرائنَ غيرَ لفظيَّةٍ، ومرجعها إلى الأصول العقليّة الموضوعيّة التي تساهم في رفع اللّبس ودفع التوهّم عن الآيات القرآنيّة الشريفة، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[1]، فالعقل هنا يتدخّل في معرفة ضمير المفرد في قوله تعالى: ﴿يُرْضُوهُ﴾ مع أنّ المذكور فيما قبله كلٌّ من اللّه عزّ اسمه والرسول ﷺ، إذ بحسب السياق ينبغي أن يكون الضميرُ ضميرَ التثنية».

٦ـ فلاحظ كم هي مسألة مهمّة جدّاً تحتاج إلى باع علميّ طويلٍ دقيقٍ ومتينٍ في فهم الآيات المباركة، والتي يمكن تسميتها بـ«**مفاتيح**» معارف القرآن الكريم، فإليك المثال الآتي، ولا نزيد عليه لأنّ البحثَ طويل، ويُطلَبُ في محلّه:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[2].

فلاحظ أنَّ الآية الكريمة بدأت بالحديث عن فئة غائبة، ثم تحوّل الخطاب إلى الحاضر بقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، ثمّ بعدها رجع الخطاب إلى الإخبار عن الغائب، فأوّلُ ما تتساءَلُ عن المتحدَّثِ إليه في هذه الآية الكريمة؟، ثمّ عن من تتحدّث عنهم الآية المباركة!، ثمَّ إنَّ أهلَ المخاطب في أوّل الآية شخصٌ مفرَدٌ،

(١) سورة التوبة / ٦٢.
(٢) سورة الأنعام / ٦.

فإذا كان فمن هو؟، وإذا كان المخاطَبُ جمعاً من الأشخاص فمن هم؟، وهل المخاطَبونَ في بداية الأمر هم المخاطَبونَ في وسط الآية!!!، فلاحظ الأسئلة التي قد تتبادرُ إلى الذهن لدى التدبّر والتفسير والبحث في مضامين الآيات القرآنيّة، ومفاهيمها، وسورها المباركة، فمن أجوبةِ هذه الأسئلة نستطيعُ النظرَ إلى القرائنِ التي تحفُّ بالآية الكريمة لمعرفة المخاطَبِ، ومعرفة المتحدَّث عنهُ، ومعرفة المتحدَّث إليه، وهو ما يعرف بـ«**الالتفات**»، وهذا كلّه يدخل في «**علم الأسلوب**» الحديث.

ثانياً: الخطاب القرآنيّ الشامل

إنّ الصياغةَ القرآنيّةَ في خطابه، قد صيغت بخطاب «**التذكير**» أو «**المذكَّرَ**»، وهذا لا يعني أنَّ المخاطَبَ على لسان القرآن هو «**الرجل**» فقط، وإنّما هذا هو الحال في أسلوب اللغة العربيّة، ويُعتبرُ هذا من باب «**التغليب**»، وهو أمرٌ متعارَفٌ عليه في اللّغة في غير هذا الموضع أيضاً، ثمَّ إنَّ القرائن التي يحفّ بها الأسلوب لتُساعدنا أكثرَ على فهم الخطابِ والنصِّ والمخاطَبِ الموجَّهِ إليه.

فالرجل يقال له «**هو**»، والمرأة يقال لها «**هي**».

وإذا كانوا مجموعةً فيقال للرجال: «**هُمْ**»، وللنساء: «**هُنَّ**».

وإذا كان الخطاب موجَّهاً إلى كلٍّ منهما فيكون للرجال: «**أنتم**»، وللنساء: «**أنتنّ**».

وإذا وصف جمع من الرجال فيزاد في آخره «**الواو**» و«**النون**»: **مسلم/ مسلمون**، إلّا أنّه في حال كون الموصوفين جمعاً من

النساء فيُضافُ في آخره «**الألف**» و«**التاء**» مع إبدال «**التاء المربوطة بالمفتوحة**»: **مسلمة/ مسلمات**.

ولعلّ هذا ما أدّى بالبعضِ إلى إساءة الفهم للخطاب القرآنيّ، وبالتالي إلى الخروج بتفسير خاطئ لمضامين القرآن الكريم، حيث لاحظ فيه غلبة صيغة التذكير، فاعتقد أنّه للرجال دون النساء، وفات عليه أمر «**التغليب**»، وغفل أيضاً عن إمكانيّة الجمع بين الرجل والمرأة في صيغ لغويّة أخرى من قبيل: «**هؤلاء**»، إضافةً إلى جواز استخدام صيغة جمع المذكّر وشمولها للمرأة أيضاً إذا كان في البَيْن رجلٌ واحدٌ فقط.

فحينما نجد القرآن الكريم يتحدّث بصيغة «**التذكير**»، فإنَّهُ لا بدَّ من التنبّه إلى ما ذكرناه آنفاً وهو موضوع شموليّة الخطاب القرآنيّ واختصاصه في نصّه وخطابه، ووضعه في مقدّمة البحوث المتعلّقة بالرجل والمرأة.

ولو نظرنا إلى التعاليم القرآنيّة والنبويّة معاً لوجدناها كلّها شاملةً للرجل والمرأة فهما مخاطَبان فيها على حدٍّ سواء، إلّا ما اختصّ منها بهذا أو ذاك، ويُدرَكُ ذلك ويتميَّزُ من خلال القرائن -كما أشرنا إليه سابقاً-، والقرائن التي تُساقُ لبيان المطلب والموضوع عديدة، فعلى الباحث معرفتُها حتى لا يكون عرضةً لإساءة فهم مطالب القرآن الكريم، ومضامين الروايات الشريفة.

ونذكر هنا ثلاثةَ نماذجَ تتعلّق بالعناوين الرئيسيّة في الإسلام، وهي:

أوّلاً: علم العقيدة:

فالآيات التي جاءت تتحدّث عن البُعد العقيديِّ في القرآن الكريم،

والدعوة التي حملتها رسالة الإسلام إلى كافّة البشر كانت تعتمد الموضوع العقيديّ بالدرجة الأولى في عملية الحوار والتحاور.

ونجد أنّ هذه الدعوةَ لم تكن تقتصر على «**الرجل**» بل شملت «**المرأة**» أيضاً، فكما أنّ الرجل خوطب بالرجوع إلى التوحيد فكذا المرأةُ، وكما أنّ الرجل دُعِيَ إلى الإيمان بالنبوّة والنبيّ، فكذا المرأةُ، فالخطاب إذن كان للجميع، وليس فقط للرجل. فجميع التعليمات المتعلّقة بالمسائل الاعتقادية لم تختصّ بالرجل دون المرأة.

الشواهد القرآنيّة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١).

بتقرير: أنّ الآية الكريمة هنا قد خاطبت الناس أجمعين، ويدلّ ذلك دخولُ الألف واللام على الجمع وهو «**ناس**»، وهو يدلّ على العموم والشمول، فبهذا شملت الآيةُ الكريمةُ المرأةَ أيضاً، فالشاهد هو عدم اختصاص الدعوة إلى عبادة اللّه تعالى بالرجل، وإنّما تشمل المرأة أيضاً.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾(٢).

بتقرير: أنَّ التحدّيَ لم يكن فقط للرجل، بل شمل المرأةَ أيضاً، فالجمع في «**كنتم**» وفي «**فأتوا**» وفي «**ادعوا**» وفي «**شهداءَكُمْ**» وفي

(١) سورة البقرة / ٢١.

(٢) سورة البقرة / ٢٣.

«**صادقين**» غيرُ مقصودٍ منه الرجلُ فقط، بل يقبلُ شمولَ المرأة أيضاً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(١).

بتقرير: أنّ الكفرَ والتحوّلات في الحالات النفسيّة والعقليّة والفكريّة غيرُ مختصّة بالرجل، فإنّ المرأةَ أيضاً يمكنها أن تتحوّل من حالة عقيديَّةٍ إلى أخرى، الأمرُ الذي لا يمنع من توجيه خطاب هذه الآية الكريمة إلى المرأة أيضاً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٢).

بتقرير: أنّ الإيمان غير مختصّ بالرجل فقط بل يشملُ المرأةَ أيضاً.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣).

بنفس التقرير المتقدّم في الآية الأولى.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة آل عمران / ٩٠ - ٩١.

(٢) سورة المائدة / ٦٩.

(٣) سورة يونس / ٥٧.

ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾(١).

بتقرير: أنّ من ظلم من قوم النبيّ صالح عليه السلام لم يكن الرجلَ فقط، فالمرأة أيضاً شارَكَتِ الرجلَ، ووقفت معه في الظلم، لذا لا يُمنَعُ من شمول الخطاب والعذاب، والدفعُ لما قرّرناه باستحالة توجّه الخطاب إلى المرأة ممنوعٌ وغيرُ واردٍ بدليل قطعيّة صدور الظلم من المرأة جملةً، والشواهدُ التاريخيّة، وما يشهدُهُ الحاضرُ خيرُ شاهدٍ على ذلك.

ثانياً: آيات الإرشاد والتوجيه الخُلُقيّ

فالآيات المتعلّقة بهذا الموضوع لم تختصَّ بالرجل فقط أو بالمرأة فقط، بل نجد شموليَّةَ توجيه الإرشاد، والنصيحة، والأمر، والنهي لكلٍّ من الرجل والمرأة.

الشواهد القرآنيّة:

قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ * وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾(٢).

بتقرير: أنّ الأمرَ بالبرِّ ونسيان النفسِ أمرٌ قبيح عقلاً، وتنقبض من صاحبها النفوس، وهذا الخطاب غير مختصّ بالرجل، بل إنَّهُ شاملٌ للمرأة أيضاً.

وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ

(١) سورة هود / ٦٦ – ٦٨.

(٢) سورة البقرة / ٤٤ – ٤٥.

ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾(١).

بتقرير: أنّ الاعتصام بالحبل، وعدم التفرقة، وذكر نعمة اللّه تعالى، والتأليف بين القلوب بعد الكونِ أعداءً، وما نتج منه من التنعّم بنعمة اللّه تعالى وغيره من الأحكام الاجتماعيّة التي وردت في الآيات القرآنيّة المتقدّمة غير مختصٍّ بالرجل فقط، بل يشملُ المرأة أيضاً.

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(٢).

بتقرير: أنّ الخباثة أو الطيبة غير مختصّة بالرجل، بل وتشمل المرأة أيضاً.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾(٣).

بتقرير: أنّ أخذ العبر من السير في الأرض غيرُ مختصّ بالرجل، بل يشملُ المرأةَ أيضاً.

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ

(١) سورة آل عمران / ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) سورة المائدة / ١٠٠.

(٣) سورة الأنعام / ١١.

رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[١].

بتقرير: أنّ الذي يتعبّد آناءَ اللّيل غير مختصّ بالرجل فقط، بل إنَّهُ يشمل المرأة أيضاً.

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[٢].

بتقرير: أنّ الدعوة إلى اللّه تعالى وصدورَ العمل الصالح والقول: إنّني من المسلمين ليس من مختصّات الرجل، وإنّما يشملُ المرأة أيضاً.

ثالثاً: آيات الأحكام

إنّ الآيات التي تُعرَفُ في الاصطلاح التشريعي بـ«**آيات الأحكام**» غيرُ مقصورةٍ على الرجل، فهي بالبديهة الشرعيّة تشمل المرأةَ أيضاً، ولا أحدَ من المسلمين خالفَ أو يخالفُ هذه الضرورةَ الدينيَّة، فراجِعْ حكمَ الصلاةِ، والصومِ، والحجِّ، والزكاةِ، والخمسِ، وأحكام الوقفِ، وراجِعْ أحكامَ الكبائرِ والصغائرِ من المعاصي، وراجع جميعَ الأحكامِ التكليفيّةِ، فستجدُ الرجلَ والمرأةَ على حدٍّ سواءٍ في الخطابِ والإرشادِ الدينيِّ، وفي الأوامرِ والنواهي التشريعيّة.

الشواهد القرآنيّة:

فلاحظ الآياتِ القرآنيّةَ الكريمةَ التاليةَ التي نقدّمها نموذجاً من كتاب اللّه العزيز:

(١) سورة الزمر / ٩.

(٢) سورة فصلت / ٣٣.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤).

(١) سورة البقرة / ١٨٣ – ١٨٥.

(٢) سورة البقرة / ٢٧٨ – ٢٧٩.

(٣) سورة المائدة / ٦.

(٤) سورة الحجرات / ١٢.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ * فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾(٤).

وعلى رغم مجيء هاتين الآيتين وسط آيات تسبقهما وتلحقهما بالحديث عن موضوع الطلاق الذي لا يكون -في الأعمّ الأغلب- إلّا بيد الرجل، إلّا أنّهما قد جاءتا تحملان حكماً متعلّقاً بالرجل والمرأة على حدٍّ سواء.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾(٥).

والآيات القرآنيّة بهذا الخطاب وبهذه الصيغة كثيرة جدّاً -أي:

(١) سورة الممتحنة / ١٣.

(٢) سورة البقرة / ١٨٧.

(٣) سورة البقرة / ٢٠٠.

(٤) سورة البقرة / ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٥) سورة النساء / ٨٦.

صيغة المذكّر، وهي الأغلب-، ولم يقل أحد: إنَّ المخاطَب فيها الرجل دون المرأة.

إذن ليس لصيغة الخطاب دخلٌ في القول بالشموليّة أو بالاختصاص، فالخطابات القرآنيّة، ونصوصه الشريفة قد جاءت بصيغة «المذكّر»، إلّا أنّ المُدرِكَ لأساليب الخطاب في اللّغة العربيّة سيجدُ عدم الممانعة من تفسيره وكأنه ناظر إلى الجنسين الرجل والمرأة على حدٍّ سواء.

والوجدانُ والعُرفُ والعقلُ والعقلاءُ خيرُ شاهدٍ على مثلِ هذه الحقيقة.

المرأة والدعوة الإلهيّة إلى العمل الصالح

لا تجدُ في القرآن الكريم دعوةً للعباد كدعوته سبحانه وتعالى إلى «**الإيمان**» و«**العمل الصالح**»، وما جاءت الدعوة إلى «**الإيمان**» إلّا واقترنت بها الدعوة إلى «**العمل الصالح**»، عدا ما انفرد به الأنبياء فقط، وقد أشرنا إلى الاحتماليّة في الانفراد فيما مضى سابقاً.

إختلاف الأثر للمرتبة والجودة:

والمتدبّر للآيات الكريمة التي تناولت دعوةَ اللّه تبارك وتعالى إلى «**الإيمان والعمل الصالح**» سيجد فيها اختلافاً في الآثار والنتائج المترتّبة عليهما، والسبب واضح وهو بلحاظ «**درجة الإيمان**» من جهة، وبلحاظ «**درجة الإخلاص**» من جهة أخرى، فهذان الأمران أساسيّان لجعل عمل المرء «**مقبولاً**»، بل ويمنحان له «**النسبة**» في القبول، ومع اختلاف هذه النسبة تختلف الآثار والنتائج المترتّبة على المتلبّس بهما.

الشواهد القرآنيّة:

ولْنَخترْ جملةً من الآيات المتعلّقة بشموليّة الأمر الإلهيّ بضرورة الإيمان والعمل الصالح لكلٍّ من الرجل والمرأة فيما يلي:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا * جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾(٥).

(١) سورة البقرة / ٢٥.

(٢) سورة البقرة / ٢٧٧.

(٣) سورة المائدة / ٦٩.

(٤) سورة الكهف / ١٠٧ – ١٠٨.

(٥) سورة مريم / ٦٠ – ٦٣.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٦).

---

(١) سورة مريم / ٩٦.

(٢) سورة طه / ٧٥ – ٧٦.

(٣) سورة الفرقان / ٧٠ – ٧١.

(٤) سورة القصص / ٦٧.

(٥) سورة الفتح / ٢٩.

(٦) سورة التغابن / ٩.

وقال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٤].

فهذا بعض الآيات من القرآن الكريم التي تدُلُّ على أنَّ ما ذكر من الآثار والأحكام جرّاء العمل الصالح والإيمان لم يكن للرجل فقط، بل إنَّهُ يشمل المرأة أيضاً، وهذا اتّفاقُ جميعِ المسلمين قاطبةً، والبديهة الوجدانيّة والعقليّة، فضلاً عن العرفيّة والعقلائيّة خير شاهد على ذلك.

والبيان التالي خير دليل قرآنيّ..

شموليّة خطاب العمل الصالح والإيمان:

فالدعوةُ الإلهيّةُ إلى «**الإيمان والعمل الصالح**» غير مختصّة

(١) سورة الطلاق / ١٠ - ١١.

(٢) سورة البروج / ١١.

(٣) سورة البينة / ٧.

(٤) سورة العصر / ٢ - ٣.

بالرجال فقط، بل هي شاملة للمرأة أيضاً كما تقدّم ذكره، والدليل الذي يدعونا إلى القول بالشموليّة إضافة إلى القرائن التي ذكرناها وغيرها من القرائن الكثيرة هو ما جاء في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3].

فلم تستثنِ الآيات القرآنيّة «**المرأةَ**» من الدعوة إلى «**الإيمان والعمل الصالح**»، فهي تشاركُ الرجلَ فيهما على حدٍّ سواء.

النتيجة المشتركة والمصير المشترك:

والآيات القرآنيّة حينما تخاطب الرجل والمرأة بخطاب واحد، بالإرشاد والتوجيهِ على حدٍّ سواء، فإنّ النتيجة التي تقدّمها لهما تكون واحدةً أيضاً، وليس فيها أيّ تمييز أو تفضيل.

(١) سورة النساء / ١٢٤.
(٢) سورة النحل / ٩٧.
(٣) سورة غافر / ٤٠.

الشواهد القرآنيّة:

فإليك هذه الآيات التي تحدّد النتيجة والمصير المشترك لهما معاً، إضافة إلى الآيات المتقدّمة:

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(٥).

---

(١) سورة العنكبوت / ٥٨ – ٥٩.

(٢) سورة سبأ / ٣٧.

(٣) سورة الجاثية / ٢١ – ٢٢ .

(٤) سورة الروم / ٤٤ – ٤٥ .

(٥) سورة فصلت / ٤٦.

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[١].

والآيات في بيان هذه الحقيقة كثيرة جدّاً، فنكتفي بهذا المقدار.

الإيمان والعمل الصالح يقود إلى مقام الصالحين:

فإذا انتهينا إلى أنّ الخطاب الإلهيّ شامل للرجل والمرأة، وأنّه يتوجَّه بالأمر والنهي والإرشاد والتوجيه إليهما على حدٍّ سواء؛ وانتهينا أيضاً إلى أنّ الجزاء والنتائج من جنس العمل، وأنّ كلّ منهما يحدّد مصير نفسه بعمله، فمن هنا سنجد أنّ من أهمّ النتائج المترتّبة على «**الإيمان والعمل الصالح**» الدخولَ إلى «**مقام الصالحين**»، وهذا ما نشاهده في القرآن الكريم بعد لحظات.

فـ«**مقام الصالحين**» متاحٌ للمرأة كما هو مُتاحٌ للرجل أيضاً، بحيث تستطيع المرأة أيضاً أن تلتحقَ بِرَكب «**الصالحين**»، وتُصبحَ منهم، وتتمكَّنَ من الحصول على ما هم يحصلون عليه من الفيوضات الإلهيّة، وهذه الحقيقة تُبيِّنُها لنا الآية الكريمة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢].

إذن.. فهذا الوعد الإلهيّ غير مختصّ بالرجل كما تقدّم، بل يشملُ المرأةَ أيضاً كما تكرّر بيانه سابقاً، فالثمرة التي وضعت من قبل اللّه تعالى في شجرة العبوديّة، وهي الالتحاق بـ«**الصالحين**» تشمل المرأة أيضاً، إذ عِلَّةُ الحصولِ على هذه المرتبة، والدخول في زمرة الصالحين هي النجاح في السير والسلوك إلى اللّه تعالى بكلا جناحيه

(١) الأحقاف / ١٩.

(٢) سورة العنكبوت / ٩.

المعرفيّ والعمليّ، وهو ما عبّر عنه في الآيات القرآنيّة بـ«**الإيمان والعمل الصالح**». فكما أنّ الرجلَ يستطيع حيازةَ أعلى رتب الكمال العلميّ والعمليّ، فكذلك المرأة تستطيع حيازةَ أعلى رتب الكمال العلميّ والعمليّ على حدٍّ سواء. وسيأتينا تفصيله لاحقاً إن شاء اللّه تعالى حينما نتناول الحديث عن التسابق إلى الكمال المطلق.

وهذا يدلّ أيضاً على كون «**الصالحين**» مقاماً وليس منصباً، إضافةً إلى كون المتلبّس به ليس بالضرورة أن يُعدّ نبيّاً ولا رسولاً ولا إماماً.

الوجود خير دليل على إمكانه:

والقرآن الكريم يذكر في مكان آخرَ في سُوَرِهِ وآياتِهِ الشريفةِ نساءً قد بلغن مرتبة الصالحين، وتلبّسن بلباسه، فقال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[1]، مع أنّك تعلم جيّداً عدمَ وجود امرأة في عالم الأنبياء والرُّسل والأوصياء.

النتيجة المحصّلة:

عرفنا إذن أنّ المرأة والرجل قد خوطبا على حدٍّ سواء بالإيمان والعمل الصالح، وعرفنا أنّ الإيمان والعمل الصالح يقودان المرء -الرجل والمرأة- إلى مقام الصالحين.

وبناءً على هذه الحقيقة القرآنيّة سنجدُ تحقّق مجموعة من العناوين المهمّة، التي هي محلّ التحاور بين الشعوب، والأُمم، فإلى المبحث التالي بعون اللّه وقوته.

---

(١) سورة النساء / ٣٤.

وهنا فقط نُذَكِّرُ القارئَ الكريمَ بما ذكرناه عن مقام الصالحين وأهميّته التي اكتشفناها من خلال دعاء الأنبياء أن يُدخِلَهُمُ اللّه تعالى في هذا المقام الأعظم، فراجع وتأمّل، فإنّك ستدرك الحقيقة في مكانة المرأة في القرآن الكريم.

الفصل الرابع

المساواة بين الرجل والمرأة
في القرآن الكريم

ملاك المساواة:

إنَّ التركيبةَ البنائيَّةَ الأساسيَّةَ والمرجعيّة للشريعة الإسلاميّة، هي ما تتحدّد من خلال «الغاية» اِلتي خلق الإنسان من أجلها. فبالنظر إلى «الغاية» يمكننا أن ننظر إلى المفردات التي وردت في الدستور الإسلامي المتمثّل بـ«القرآن» و«السُّنَّة»، ومنها نتعرَّفُ على ما يُشكِّلُ «الأصل» فيها، فهل الأصالة للمساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام، أم الأصالة للتفاضل والتمايز؟، -كلّ ذلك بلحاظ الهدف والغاية فالتفت-.

فإذا كانت الأصالة للمساواة، فهنا سنحتاجُ إلى أن ننظرَ إلى الآيات والروايات التي ظاهرها التفاضل، ونحاولُ أن نجدَ خيوطَ الانسجام بينهما إن وُجدت.

ولو كانت الأصالة للتفاضل ففي هذه الحالة سنحتاج إلى النظر في الآيات التي ظاهرها المساواة؟.

ومن هنا فإنّنا قبل التوصّل إلى الإجابة، علينا الرجوع إلى معرفة التركيبة البنائيّة للدِّين الإسلاميِّ الحنيف؟

مشروع الإنسان الكامل.. الغاية:

تتلخّص التركيبة البنائيّة للشريعة الإسلاميّة في مشروعها بـ«**إيصال الفرد إلى السعادة المطلقة**»، وإلى «**تحقيق حضارته الإنسانيّة**».

وهنا تبرز الإشكالية التي تميِّز كلّاً من النظرة والرؤية القرآنيّة عن النظرة والرؤية الإنسانيّة الوضعيّة، إذ هذه إحدى المواقع التي تؤثر في الأحكام، والقرارات، والمتبنّيات الفكريّة، وبالتالي ستؤثر في السلوك والتطبيق.

فإن الرؤيةَ القرآنيّةَ لأجل تحقيق السعادة والحضارة إنّما تتمّ بالنظر إلى كونِ عالَمِ الدنيا عالماً مؤقتاً، انتقاليّاً، وجسراً يقود إلى العالم الحقيقيّ، الذي هو عبارة عن محلّ الإقامة النهائيّة للإنسان.

وما هذه الدعوى التي التزم بها القرآن الكريم إلّا وقد أثبتَها بالبرهان العقليّ، وتحدّى العالم بكلّ أطيافه وطبقاته وشعوبه، وعلى مرّ التاريخ أن يأتوا بدليلٍ على نفيِ برهانِهِ، وإثباتِ نقيضِ مدّعاه. والحقُّ هو أنَّ الأُممَ والشعوبَ التي مرّت في التاريخ بدءاً من نزول القرآن الكريم وإلى يومنا هذا، لم يستطع أحدٌ منها أن يأتيَ بدليل مناقض، أو ينقضَ دعواه، فإنّ الحجّة التي يسوقُها هذا الكتابُ الإلهيُّ الشريفُ لَقَويَّةٌ جدّاً، (والفكرُ لا يُقرَعُ إلّا بالفكر) منذ بدءِ نزولِهِ على صاحبِ الرسالةِ السماويّة النبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ، إذ قال تعالى: ﴿قُلْ

هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1]، فتقدّم من تقدّم لأجل إثبات نقيض دعوى القرآن الكريم، أو لنفي مدّعاه، إلّا أنّه إلى الآن لم يتمكّن أحد ممّن تصدّى لمثل هذه المهمّة أن يُثبِتَ عكس مدّعاه، أو ينفيَ ما يدّعيه، والعلّة من وراء عدم التمكّن تكمن في حقيقة واحدة وهي ما قاله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[3].

فبناءً على الرؤية القرآنيّة تلك فإنّ الحضارة لا تتحقّق إلّا بالأخذ بمتطلّبات النشأتين الماديّة والمعنويّة، الدنيويّة والأخرويّة، وهذا هو المشروع الأساسيّ الذي تدور حوله جميع أحكام القرآن الكريم، وتتمحور حوله كلّ الأوامر والنواهي، والإرشادات والتوجيهات في الشريعة الإسلاميّة.

وفي هذا المشروع الوجوديّ الضخم للإسلام لم تؤخذ الفروقُ الجنسيّة للأفراد أو النوعيّة أو العرقيّة أو أيّ نوع من أنواع الفروقات، فإنّ العامل الأساس الذي أُخِذَ في موضوع التركيبة البنائيّة للإسلام، وفي محور مشروع القرآن الكريم هو: «**العاملُ الإيماني**» -البعد النظري-، و«**عاملُ العمل الصالح**» -البُعد العمليّ-، وقد مرَّ ذكرهما، وهذان العاملان في الواقع أثمرا أهمّ عنصر من عناصر الهوية الإنسانيّة،

---

(١) سورة البقرة / ١١١.

(٢) سورة النحل / ١٧.

(٣) سورة الرعد / ٣٣.

التي تميّزه عن سائر الكائنات وهو: «**العقل**». وسيأتينا الكلام عن هذا العنصر لاحقاً إن شاء اللّه تعالى.

وهذان العاملان لا يحدّهما أيّ نحو من أنحاء الفروق السائدة بين بني البشر، فلو كان الإنسان «**أسودَ اللون**» أو «**أبيضَ اللون**» أو «**أحمرَ اللون**»، أو «**أصفرَ اللون**»، فإنّهما ممكنا الصدور منه، ولو كان الإنسان رجلاً أو امرأة فإنّهما يقبلان التحقّق بهما. نعم، أُخِذَتْ بعضُ الضوابط في قيمتهما من قبيل عدمِ الجنونِ، والبلوغِ لتحقيق الإنسان الكامل ومشروع تحقيق الحضارة الإنسانيّة.

وإذا لاحظنا التركيبة البنائيّة للإسلام ومشروعِهِ سنجد أنّه يرى حتّى لـ«**أصحاب الاحتياجات الخاصّة**»[1] قابليّة التكامل، والاغتنامَ لمراتب السعادة التي يطرحُ كلَّ مفرداتها في دستوره العظيم «القرآن الكريم»، وبمعنىً آخرَ أنّ الإسلام يرى أَنَّهُ ما دام العقل والروح موجودَين وسليمَينِ في الإنسان، فهو يملك مفاتيح الدخول إلى عالم «**التكامل المطلق**»، وبيده الوصول إلى «**السعادة المطلقة**»، وعنده قابليّة التحقيق لـ«**الحضارة الإنسانيّة**».

وقد صرّحت النصوص الشريفة قرآناً وسُنّةً بهذه الحقيقة، وإنَّنا في هذه الرسالة نُحاوِلُ أن نُركِّزَ فقط على القرآن الكريم كما بيّنّا سابقاً، ولو دخلنا إلى عالم الروايات الواردة في الثقل الأكبر لطال بنا الحديث، ولوجدنا تجلِّيَ هذه الحقيقة في أروع وأجمل وأعظم تجلّياتها، فإليك بعضاً من الآيات القرآنيّة الكريمة:

---

(١) يقصد منه الشخص الذي يعاني من إعاقة بدنيّة.

الشاهد الأوّل:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١].

فإنّ الآية الكريمة تحدّد ميزان التفاضل بشكل واضح وصريح وهو «**التقوى**»، وهذه الحالة المعنويّة العالية من الصفاء الذهنيّ والنفسيّ المثمرة للسلوك الجميل لا تحدّ بحدود الجنس، ولا العرق، ولا القوم، وفي الوقت نفسه لا تحدّه الحدود الجغرافيّة الزمكانيّة (الزمانيّة والمكانيّة معاً).

الشاهد الثاني:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٢].

فالآية الكريمة هنا أيضاً تقدّم لنا أوضح صور التساوي، فإنّ الذي يلبس لباس الطاعة الحقيقيّة للّه وللرسول فإنّه يكون مع الطبقة العليا ممّن أطاعوا اللّه تعالى.

وكما بينّا سابقاً أنّ صيغة جمع المذكّر لا تدلُّ أبداً على انحصار الخطاب بالرجال، بل إنّها تتعدّى لتشمَلَ النساءَ أيضاً، ومن القرائن الدالّة في هذه الآية على الشمول هي: «**طاعة اللّه والرسول**» التي هيَ ليست مقتصرةً على الرجل فقط بل تشمل المرأة أيضاً، وبالتالي فإنّ النتائج التي ستترتّب على الطاعة ستكونُ واحدةً

(١) سورة الحجرات / ١٣.

(٢) سورة النساء / ٦٩.

ومشتركةً -وهذا أيضاً قد مرّ ذكره-، فلاحظ إذن التركيبة البنائيّة الأساسيّة للبناء الإسلاميّ الذي لا يُعرَفُ فيه التمييز ولا التفاضل (إلّا بالتقوى).

ويؤكّد على الدلالة المتقدّمة -إضافةً إلى إمكانيّة الوصول إلى مثل هذا المقام- ما يكرّره كلّ مسلم ومسلمة في صلاة الفريضة كلَّ يومٍ عشرَ مرّاتٍ على الأقل، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[1]، فالدعاء هو طلب الهداية إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وهذا الصراط هو نفس الصراط الذي أنعم اللّه بِهِ على من ذكرتهم الآية المتقدّمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾[2]، وهؤلاء المنعَمُ عليهم هم: **النبيّون، والصدّيقون، والشهداء، والصالحون.**

وقد تبيَّن من جميع الآيات المتقدّمة أنَّ النتيجةَ المحصَّلَةَ منها (التي تقودنا إلى حقيقة واحدة مهمّة، وهي تُعتبر من ركائز القرآن الكريم، ومن دعائم الإسلام الحنيف) هيَ: **عدم الفرق بين الرجل والمرأة في صراط العبوديّة.**

إذَن يمكننا القول من خلال دستور الإسلام الحنيف «**القرآن الكريم**»، أنَّ الرؤيةَ الأوّليّةَ للإسلام لكلّ من الرجل والمرأة هي «**المساواة**»، والأصل الأوّليّ للقرآن الكريم هوعدم التفريق بينهما، وأنّ كلّ واحد منها لا يختلف عن الآخر في هذا المضمار، ومن هنا فلن يبقى -لمن يريد الخدشة في الإسلام من خلال جهة المساواة أيُّ

(١) سورة الفاتحة / ٦- ٧.

(٢) سورة النساء / ٦٩.

كلام، ولا أيّ نقد، لأنّ ذلك لا يكون مبنيّاً على رؤية صحيحة للقرآن الكريم، وللإسلام الحنيف.

الآيات المصرّحة بالتساوي:

والآيات الكريمة الآتية -إضافةً إلى ما ذكرنا- تحمل نفس الدلالة التي نصرّح بها وهي «**مساواة الرجل والمرأة في الإسلام**»، وأنّه -الإسلام- ليضعهما في مستوى واحد من دون تفاضل، وينظر إليهما بنظرة واحدة من دون تمييز.

الشاهد الثالث:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(١).

الشاهد الرابع:

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

---

(١) سورة الأحزاب/ ٣٥ - ٣٦.

وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

التسابق تجلّي التساوي

ومن أهمّ وأروع الآيات في القرآن الكريم الدالّة على التساوي بين الرجل والمرأة هي الآيات التي تحثّ كلّ عبدٍ على التسابق في صراط العبوديّة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(٢).

أركان التساوي:

إنّنا تارةً ننظر إلى التسابق بلحاظ مضمار السباق، وتارةً أخرى بلحاظ المدرسة والجامعة، ففي كلّ منهما سنحتاج إلى عناصر وحدويّة وهي:

١- وحدةُ المضمارِ/ الجامعة والكليّة.

فلا يعقل أن يكون مضمار هذا طويلاً، ومضمار ذاك قصيراً، أو أن يكون محلّ دراسة هذا الجامعة وذاك الابتدائيّة ومع ذلك نريد النتائج الموحّدة.

٢- وحدةُ الوسيلة والمواد.

فلا يعقل أن تكون وسيلة هذا سيارة وذاك دراجة، أو أن تكون مواد هذا كيمياء وهذا رسماً ومع ذلك نريد النتائجَ موحّدة.

٣- وحدة القابليّات والقدرات.

---

(١) سورة التوبة / ٧١ - ٧٢.

(٢) سورة الواقعة / ١٠ - ١١.

فلا يُعقَلُ أن تكونَ لدى هذا القدرة على المشي وذاك يكون معاقاً، أو أن يكون هذا ذا عقليّة إبداعيّة، وذاك يكونُ مريضاً عقليّاً، ومع ذلك نريد النتائج موحّدة.

٤- وحدة الهدف والغاية.

فلا يُعقَلُ أن يكون هدف هذا الوصول إلى نهاية السباق وذاك إلى وسطه، أو أن يكون هدف هذا الوصولَ إلى الدكتوراه، وذاك أن يكون نجاراً ومع ذلك نريدُ النتائج موحَّدةً.

فلو كان هناك ثمّة اختلاف في «**المضمار**» أو في «**الوسيلة**» المعطاة لهما أو في الامتحان الإلهيّ لهما، أو في «**الهدف**» من وراء الامتحان الإلهيّ في ميدان السباق، أو في «**القابليّات**» الموجودة لدى المتسابقين لما صحَّ التسابق بين كلّ من الرجل والمرأة، فيصحّ التسابق مع تماميّة «**أدوات ووسيلة**» السباق عندهما، ومع اتّحاد «**الهدف**» لهما، ومع امتلاك كلّ منهما «**القدرات والقابليّات**» ذاتها، لا يختلف أحد منهما عن الآخر فيها، ومع وحدة «**مضمار السباق**» الذي سيتسابقون فيه، وإلّا فلو كانت الامتحاناتُ مختلفةً، والأدواتُ متباينةً، والأهدافُ متعدّدةً، ومحلُّ الدراسة -المستوى- مختلفاً لما صحّ إدخال كلّ من الرجل والمرأة في حلبة سباق واحدة، والإعلان عن الأوّل على عالم البشر -على هذا التقدير- على الإطلاق.

ونلفتُ نَظَرَ القارئ العزيز إلى أنّنا ما جعلنا الوحدة النوعيّة بين الرجل والمرأة فيما ذكرنا في العناصر الأربعة لتحقيق التساوي، وسببُ اعتمادنا على كفاية الارتكاز الموجود في ذهن القارئ الكريم

هو أنَّ حديثنا هو عن الرجل والمرأة اللّذينِ يجمع بينهما جامع أساسيّ وهو كونهما «الإنسان».

تطبيق الأمر على الدستور الإلهيّ:

نجد أنّ القرآن الكريم قد حدّد الهدف، والوسيلة، والمضمار، للإنسان -الرجل والمرأة-، ومنحهما القابليّاتِ لتحقيق متطلّبات الوصول إلى الهدف، وتحقيق الغاية، فإليك بعضَ الآيات القرآنيّة المتعلّقة بهذه الخصوص:

القرآن الكريم يحدّد الهدف الواحد للرجل والمرأة:

إنَّنا نعلم أنّ الأهداف يمكنها أن تنقسم إلى قسمين رئيسيّين وهما:

الأهداف المرحليّة.

والأهداف الغائيّة.

فإذا أتينا إلى صفة «**الصالحين**» فإنّنا نجدها بالإضافةِ إلى كونها هدفاً سامياً، وعالياً، ومطلوباً لدى الأنبياء والرُّسل والأوصياء وسائر البشر، نَجِدُها هدفاً مرحليّاً أيضاً، وهو في حدِّ ذاته يخدم هدفاً أسمى، وهو نهايةُ الأهدافِ، وغايةُ الغاياتِ كُلِّها.

والقرآن الكريم قد حدّد هذا الهدف الغائيّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

فالآية الكريمة بيَّنت البُعدين اللّذين يحتاجهما كلٌّ من الرجل

(١) سورة الكهف / ١١٠.

والمرأة للوصول إلى هذا الهدف الغائيّ، إذ تُمثِّلُ «**البُعدَ العمليَّ**» في «**العمل الصالح**»، وتُمثِّلُ البُعدَ «**النظريَّ المعرفيَّ**» في «عدم الشرك»، ورجوعه إلى العقيدة..

وهناك آية أخرى بيَّنت البُعدين أيضاً إلّا أنّها تشكّلت بتشكيلةِ «**العمل**»، ودلّت بالدلالة الإلتزميّة على «**المعرفة**»، وهي تُعدّ من الآيات التي تحدّثت عن الهدف المرحليّ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

ولأجل رفع توهّم أو إشكال نقول: لا يُفهَمُ من وصفنا للعبوديّة بكونِها هدفاً مرحليّاً كونُهُ ذا صلاحيةٍ محدودةٍ بمرحلة معيّنة ومن ثمّ يمتنعُ العبد من عبوديّة ربّه، كما فهم ذلك البعض، كلا؛ بل المقصود منه البيان الآتي فنقول:

إنّ الدنيا مرحلة العمل والعروج معاً، لذا فإنَّ العبد مطالَبٌ بأنْ يلبسَ لباس العمل الصالح، فيحقِّقَ في نفسه العروج، إلّا أنّ الآخرة -القيامة الصغرى- عبارة عن استمرار البناء العمليّ، وظهور نتائجه فيه، فهنا يكون العروجُ بلا عمل، فمعنى الهدف المرحليّ أنّ مرحلة البناءِ فيه تتوقّفُ بالموتِ، والعبوديّة جنبة من جنبات العمل، وهو ما ينتهي بالموت، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٢]، وقد فسّر اليقين هنا بالموت، ودَلَّ على أنّ اليقين هو الموت ما جاء في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[٣].

---

(١) الذاريات / ٥٦.

(٢) سورة الحجر / ٩٩.

(٣) سورة المدثر / ٤٦-٤٨.

وقد فصّل القرآن الكريم في آيات أخرى في البُعدين العلميّ والعمليّ، وأدرجهما مستقلّين في آيات أخرى، لمناسبة السياق في الآيات المحيطة، بما يتناسَبُ مع موضوع السورة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(١).

إذ في هذه الآية المباركة بيان واضح لتجلّي البُعد النظريّ، وما ينبغي أن يؤدِّيَ إليه من التحقّق بغاية الغايات.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٢).

إذ في هذه الآية المباركة نجد بياناً للعمل غير الصالح الذي يصبغه القرآن الكريم باللّهو واللّعب، وهذا يشكّل مانعاً من التحقّق بغاية الغايات.

وبيَّن القرآن الكريم نفس الهدف الذي وُجِدَ الإنسانُ الرجلُ والمرأةُ لتحقيقه في آياتٍ أخرى وبألفاظٍ أخرى أيضاً، قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣).

وبيَّنَت آيةٌ أخرى أنّ اللّه تبارك وتعالى لَمْ يخلقِ الناسَ عبثاً، بل خلقهم لغاية ولتحقيق هدف عظيم، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

(١) سورة الرعد / ٢.

(٢) سورة الأعراف / ٥١.

(٣) سورة يونس / ٥٦.

خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾[1].

فإنّ الرجوع إلى اللّه تبارك وتعالى أمر محقّق وحتميّ وواقعيّ، وهذا الأمر هو الذي يدفع عن الخَلْقِ العبثيّةَ من أساس، وينفيها عنه من أصل.

فالهدف الذي خُلِقَ الإنسانُ لأجلِهِ واضحٌ جدّاً في آياتِ وسُوَرِ القرآن الكريم.

القرآن الكريم يكشف عن منح القابليّات للرجل والمرأة وبشكل متساوٍ:

ليس من يصنع مصنعاً، أو دميةً كمن يصنع وجوداً وعالَماً برمّته، وليس من يصنع من الناس شيئاً يكونُ بالضرورة محيطاً به وبكلّ المحيط الذي حوله، ويكونُ عالماً به قبل الصّنع وحينه وبعده، وبإيجابيّات صنعه، وبالسلبيّات التي قد تضرّه إذا ما لحقت به، فما يحدث اليوم من انقلاب الموازين في عالم الطبيعة ليس إلّا واحدة من سلبيّات صناعات الإنسان، إذ هو يريد ما ينفعه فإذا به يجد نفسه قد أضرّ نفسَهُ من جهة أخرى، وهذا الأمرُ (كما أعتقده) أمرٌ طبيعيٌّ أن يصدر منه، وذلك لعدم علمه باحتياجات ومتطلّبات بقيّة الكائنات.

غيرَ أنَّ اللّه تبارك وتعالى يصرّح في القرآن الكريم الذي هو دستوره في الأرض بأنّه لمّا خلقَ الخلقَ والعالمَ وضع لكلِّ مخلوقٍ ما يريده، وما يستحقّه، ملبّياً بذلك احتياجاتهم ومتطلّباتهم على الإطلاق،

---

(١) سورة المؤمنون / ١١٥.

وهذا ما يميّز الخالقَ والصانعَ الحقيقيَّ عن غيره ممَّن يدَّعي الصناعة والإبداع، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[(١)].

ومن مقتضيات الخلقة أيضاً أن يكون الخالق عالماً محيطاً بمخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[(٣)].

فكان من أهمّ مقتضيات هذا الخلق أن يكون قائماً على مبدأ العدالة، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[(٤)]، والهداية المذكورة في الآية الكريمة هي الهداية التكوينيّة العامّة لجميع الخلائق على الإطلاق.

فكان هذا الإعطاء متجلّياً في آيات القرآن الكريم، حيث أخذ كلّ شيء في الوجود مكانه، وبدأ بممارسة دوره الوجوديّ المناط به، ومن يشاهد عالم الطبيعة وقوة الإدارة الإلهيّة[(٥)] فيه، ودقّتها، يدرك الحكمة الإلهيّة، ومستواها، والآياتُ القرآنيّةُ التي وردت في بيان هذه الحقيقة كثيرة جدّاً، منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) سورة النحل / ١٧.

(٢) سورة الأنعام / ١٠١.

(٣) سورة الرعد / ١٦.

(٤) سورة طه / ٥٠.

(٥) هذا من الإضافات التي أضيفت مؤخّراً، حيث كانت من برنامج إذاعيٍّ أعددناه لإذاعة القرآن الكريم بعنوان: «الإدارة في القرآن»، حيث بينّا فيه أنّ الوجود يديره ربٌّ واحد وهو اللّه تبارك وتعالى وأسمينا البحث بـ«توحيد المدير للوجود»، وهو نفسه المعروف بـ«توحيد المدبّر»، وهذا البحث يقود إلى «توحيد الإدارة للوجود».

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

فلمّا وضعَ اللّه سبحانه وتعالى زمام تسخير العالم والطبيعة بيد الإنسان، أمره أن لا يتجاوز حدودَهُ بالتعدّي على حقوق الآخرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف / ٥٤.

(٢) سورة إبراهيم / ٣٢-٣٣.

(٣) سورة النحل / ٣-٨.

(٤) سورة النحل / ٩٠.

(٥) سورة الرحمن / ٩.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[١].

وكيف لا يكون الأمر بالقسط والعدل وما هذا الأمر صادراً إلّا من اللّه الحقّ، الحكيم، العدل، القاسط سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٤].

هداية الإنسان ـ الرجل والمرأة-:

وكان للإنسان نصيبٌ إضافيٌّ في أمر الهداية، بحيث زاده الله بهداية خاصّة عن سائر المخلوقات التي أعطاها اللهُ الهدايةَ العامّةَ، وقد كانت هذه الهداية الأخرى بسبب ما زوّد به الإنسان من قابليّة الاختيار، والفهم، وكان ذلك بتزويده بالعقل، وهذا من أهمّ ما ميَّز الإنسان ـالرجل والمرأةـ عن غيره من المخلوقات.

أعظم عنصر القابليّة في الإنسان ـ الرجل والمرأة ـ.. ١- العقل:

فبالعقل أمكن للإنسان أن يرتقي إلى محلٍّ يكون فيه أفضل من

(١) سورة الحديد / ٢٥.

(٢) سورة آل عمران / ١٨.

(٣) سورة الحج / ٦.

(٤) سورة النمل / ٩.

الملائكة، ومع الإخلال به، وعدم تفعيله كما ينبغي يكون قد كتب الإنسان على نفسه أن يكون أخسَّ من البهائم.

والعقل يُعتبرُ من أهمّ ما زوّدَ به اللّهُ تباركَ وتعالى الإنسانَ -الرجلَ والمرأةَ- على الإطلاق، وهو يُعدّ من أهمّ العناصر المشتركة بين جميع البشر من الأوّلين إلى الآخرين (التي تجمع جميع البشر) بتحقّقها. لذا نلاحظ القرآن الكريم عندما يتحدّث عن زمن النبيّ آدم عليه السلام يتحدّث بطريقة وكأنه حاضر في زمان نزول آياته وسوره على العرب في مكّة والمدينة، والسبب واضح وهو أنّه اعتمد أهمّ عنصر مشترك ورابط بين الزمانين وهو العقل.

وهكذا هو الحال بالنسبة إلى سائر إخباراته ونقله لقصص الماضين، فلو كان هناك ثمّة اختلاف بين عصر نزول القرآن الكريم وبين العصور الغابرة لما صلح نقل تلكم القصص، وهكذا الحال بالنسبة إلى زماننا وما سوف يأتي مستقبلاً وبين زمان نزول القرآن الكريم، فإنّه بالعنصر المشترك استطاع القرآن الكريم أن يربطَ الأحداثَ ويقيسها ويقيّمها ويميّزها ويستخرج نتائجها، وبه أمر ونهى، وبه دعا إلى التحلّي بالفضائل، والابتعاد عن الرذائل.

فبالعقل يمكن فتح حوار الحضارات، وبه يمكن الولوج إلى النقاشات، فهو الذي يملك القدرات على تجاوز العنصريّة، والقوميّة، والزمان والمكان، ويخترق كلّ الحواجز التي تقف دون التواصل بين بني البشر، وبه يُعرَفُ الحقُّ من الباطل، وبه يمتازُ الجيّدُ من الرديء، وبه يتفاضل الناس، وبه يُعرَفُ المنصفُ من غيره، وبه يتبيَّنُ العدل من الظلم، وبه تتجلّى الفضائل وتُكشَفُ الرذائل.

والعقلُ وما خُلقَ عليه من إدراك الضروريّات والبديهيّات قد زُوِّدَ به كلُّ إنسانٍ رجلاً كان أو امرأةً، ومن أوّل مخلوق بشريّ إلى آخره، والشواهد التاريخية تثبت أنّ ما كان عليه عقل الإنسان الأوّل هو نفسه الموجود عليه إنسان اليوم، فمن استطاع أن يدرك مفاتيح التعامل مع هذا العقل بما يحويه من المدركات استطاع أن يتعامل مع كلّ إنسان، وأينما وُجد، فهل يختلف سقراط عن أينشتاين في أنّ النقيضينِ لا يجتمعان!، وهل يتّفق الرجل الأوّل في العصر الحجريّ مع الرجل في العصر الحديث في أن ٢ + ٢ لا يُساوي ٤ !، وهل تختلف امرأة اليوم عن امرأة الأمس في أنّ الصندوق الأكبر لا يدخل في الصندوق الأصغر!، وهل شابُّ الأمس يختلفُ مع شابِّ اليوم في احتراق جلده إن لمسته النار!.

فما دام العقل يملك المواد الأوّليّة لإدراك الحقائق، والتمييز بين الأشياء والأرقام والألوان وغيرها من الأمور ألا يقدر أن يدرك الفروقات بين الموجود والمعدوم، وبين الأثر والمؤثِّر، وبين الغنيّ بالذات والفقير بالذات، وبين الحسن والقبح، وبين العلّة والمعلول، وبين الواجب والممكن والممتنع، بين الحدوث والبقاء، وبين الصفة والموصوف، والوجود الخارجيّ والوجود الذهنيّ، وبين استحالة الدور والتسلسل، وبين الواحد والكثير، وبين الزمان والمكان، وبين المتغيّر والثابت، والحركة والسكون، أظّن أنَّه إذا قال قائل: إنَّ العقل لا يمكن أن يدرك مثل هذه المسائل، فأقول: إذن على العلم السلام، وعلى النتائج التي استنتجها العلماء في عالم الطبيعة وغيرها، إذْ كيف يمكن تفسيرها إن لم تكن قائمةً على تفسيراتٍ منطقيّةٍ، يقبلُها العقل؟!

والقرآن الكريم يُثبِتُ مع البرهان العقليّ القطعيّ أنّ الموجود الوحيد الذي يملك هذه القدرة ليس سوى خالقِ العقل، وخالقِ هذا الإنسان، وليس سوى اللّه تبارك وتعالى.

فلمعرفة القرآن الكريم - الدستور الإلهيّ للعالم والوجود والإنسان - بهذا العقل ومدركاته قام بالتركيز عليه، وبإظهار ما فيه من جوانب الإبداع، والأمور التي قد تبطئ من حركته، والمسائل التي قد توقعه في الاشتباهات، فمن هنا جاء القرآن الكريم مؤكّداً على ضرورة عدم إماتة العقل، وعدم جعله ينحرف عن مساره الصحيح، فمن هنا ما ترك القرآن الكريم شيئاً فيه رفعُ الأغطية عن العقل أو تقويتُهُ وزيادتُهُ له إلّا وذكره في آياته وسورة.

فعلى هذا العقل اعتمد القرآن لإثبات وجود اللّه تبارك وتعالى، وبه نفى الشريك مؤكّداً على التوحيد، وبه وضّح أحكامه وتشريعاته، وبه أثبت رسل اللّه تعالى وأنبياءه، وأوصياءه، وبه استطاع أن يدخل المحاورات بين الأنبياء والكفّار، وبين الرُّسل والمشركين، وبين الأوصياء والطغاة، فتحدّى فرعون وجنده، ونمرود وسطوته، وقارون وكبرياءه، وقريشاً وغطرستها، والمنافقين وتلوّنهم، ودخل في معالجة أعقد المسائل السياسيّة، وأشكل القضايا الاقتصاديّة، وأصعب الأمور الاجتماعيّة، وأدقّ التفاصيل النفسيّة، وبهذا العقل دعا القرآنُ الكريمُ الإنسانَ إلى ضرورة النهضة الحضاريّة، وإلى استكمال النقائص التي في ذاته ووجوده، وإلى التحقّق بالإنسانيّة الذي تدعو إليه فطرته أيضاً.

وإليك بعضَ الآياتِ القرآنيّةِ الكريمةِ الدالّةِ على بعضِ ما ذكرناه، وتفصيلَهُ للمتدبّر والتالي للقرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

(١) سورة البقرة / ١١١.

(٢) سورة البقرة / ١٤٠.

(٣) سورة الأنبياء / ٤٢-٤٤.

(٤) سورة الفرقان / ٤٥-٤٩.

يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

(١) سورة النمل / ٦٠-٦٥.

(٢) سورة يس / ٧٨-٨١.

(٣) سورة غافر / ٨٢-٨٥.

(٤) سورة الأحقاف / ٤.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٤).

وتعرّض القرآن الكريم بالنقد لمن لا يحرّك عقله، أو يجعله عرضة لتلاعب الأهواء، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأحقاف / ٩-١٠.

(٢) سورة الأحقاف / ٣٣.

(٣) سورة البقرة / ١٦٤.

(٤) سورة البقرة / ١٧٠-١٧١.

(٥) سورة الأنفال / ٢٢.

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢).

إنّ هذه الآياتِ وغيرها في القرآن الكريم الكثيرةَ مثلَها قد خاطبت العقل، وحفّزت فيه البديهيّات للوصول إلى المجاهيل المعرفيّة، وأرشدت الإنسان إلى النظر في عالم المادّة والطبيعة كي يسبر غورها، وينظر من خلال الفكر السليم، وأن يتجاوز الأُطر التقليديّة التي بنى عليها معارفَهُ وأفكارَهُ كي يقفَ على الحقائق، ويترفَّعَ بذلك عن السفاسف، والدنايا.

ولا نزيد على ما ذكرناه عن محوريّة العقل في الخطاب القرآنيّ، ومستوى اهتمامه به، مكتفين بما أوردناه للوقوف على هذه الحقيقة في القرآن الكريم.

غير أنّه بقي شيء مهمّ في البَيْن وينبغي توضيحه جيّداً، وهو: أن ننظرَ إلى مباني القرآن الكريم ومستنده في وصفه لبعض الناس بأنَّهم لا يعقلون، فبعضها ما مرّ قبل قليل، والبعض الآخر من الآيات الكريمة هي الآتية:

قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٣).

(١) سورة الحج / ٤٦.

(٢) سورة الأنبياء / ٦٦-٦٧.

(٣) سورة الفرقان / ٤٤.

فهنا أيضاً تظهر إشكاليَّةُ عدم فهم القرآن الكريم وما يُبنى عليه في توصيفه، ومرجعُ هذه الإشكالية إلى الاختلاف في الرؤية الكونيّة للعالم والوجود، ويمكن تقريب المطلب بالمثال الآتي: فلو أنّ شخصاً سافر إلى بلدة لأجل مهمّة دراسيّة أو عمل ما، ثمَّ بعد الإنجازِ رجعَ إلى حيث مقرّ إقامته الدائم، فإن قام هذا الشخص بالتصرّف في محلّ إقامته المؤقّتة، وكأنّه يعيش في وطنه الدائم، فإنّ العقلاء ينتقدونه، ويعتبرون تصرّفه غير عقليّ ولا يرتضيه العقلاء، فكذا الحال بالنسبة إلى القرآن الكريم، فإنّه يرى بحسب رؤيته للعالم والوجود «في مَنْ يتصرّفُ في عالم الدنيا بتصرّفات الإقامة الدائمة»، أنَّ جميع تصرّفاته لا تُعَدُّ عقليَّةً.

نعم يبقى الكلام في أن يُثبِتَ الطرفُ المعارِضُ عكسَ ما يقول به القرآن الكريم- وهذا بحث آخر-، فالساحة الحواريّة العلميّة مفتوحة، والقرآن مذ نزل من السماء إلى يومِنا هذا أعلنها مُدَوِّيَةً: قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1]. فهل من مبارز؟!!.

أعظم عنصر القابليّة في الإنسان ـ الرجل والمرأة -.. ٢- الاختيار:

فكان من مقتضيات التزويد بالعقل أن مُنح الإنسانُ الحريَّة في اختيار البدائل التي أمامه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2]، وقد عبَّر القرآن الكريم أنّ هذا التزويد هو صورة من صور الهداية الإلهيّة للعبد، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[3].

(١) سورة البقرة / ١١١.

(٢) سورة الشمس / ٧-٨.

(٣) سورة البلد / ١٠.

فإنَّ هذا الاختيار جعلَ الإنسانَ -الرجلَ والمرأةَ- مختلفاً عن سائر الكائنات، فهو قد مُنِحَ اختيارَ طريقةِ عيشِهِ نوعيّةً ومكاناً وزماناً، وطريقة لبسه، وما يلبسه، وكيف يلبسه، وهكذا في اختيار مصيره، وهذا التزويد للإنسان جعله مُتميّزاً عن سائر المخلوقات التي تمشي وفقَ غرائزَ ثابتةٍ، لا تعرف أن تُطوِّرَ حالَها أبداً.

أعظم عنصر القابليّة في الإنسان -الرجل والمرأة-.. ٣- القدرة:

إنّ تمكين الإنسان من العنصرين المتقدّمين غيرُ كافٍ لتحقيق الفعل خارجاً، فلا بدّ من اقتران القدرة على الفعل بهما، فمن كان مسلوب القدرة عن الفعل فإنه لن يتمكّن من أداء المسؤوليّة الملقاة على عاتقه.

فلا بدَّ إذن من وجود القدرة لدى الرجل والمرأة لأجل الدخول في السباق الوجوديّ.

الحركيّة والدافعيّة للعناصر الأربعة:

إنّه لا بدّ من تزويد المتسابق بـ«**الدافع**» الذي سيحفّزه للتسابق، وطلبِ المركز الأوّل، فهَلْ يكفي أن يعرف المتسابقُ الهدفَ لأجل تحقيق مراده ورغبته؟!، فهبْ أنّ المتسابق عرف الهدف الذي ينبغي الوصول إليه، فهل معرفته بهذا الهدف ستُحرِّكُهُ؟! أم لا بدّ من إضافةِ دافعٍ يدفعُهُ إلى ذلك الهدف.

وهل يكفي أن يضَعَ المتسابقُ قدميه في المضمار؟! فإذا لم يتحرّك في السباق فما هي الفائدة من وضع القدم؟!، ولو أنّه زُوِّدَ بوسائلَ عاليةِ الجودةِ لحيازةِ المركزِ الأوّل، فهل يكفي ذلك بدونِ أن يتحرَّكَ

المتسابق؟!، وهل يكفي توفّر القابليّات كلّها في المتسابق كي ينطلقَ أوّلاً، حتّى يستمرَّ في السباق ثانياً، وحتّى يصلَ إلى نهاية السباق ثالثاً، ويطلبَ المرتبة الأولى رابعاً؟!.

إنّه لا شكَّ ولا ريبَ في أنّ كلّ ذلك لا يكفي، إذ لا بدّ من دخول عنصر آخر في البَيْن، بحيث يشكّل هو الحركة (الداينامو الرئيسيّ) لكلّ عناصر السباق، ولكن ما هو هذا «**الدافع**»؟، وما الذي نقصده من هذا «**الدافع**»؟!.

الجواب:

إنّ اللّه تبارك وتعالى لم يترك الإنسان حتى زوَّده بالقابليّات التي سوف يحتاجها للانطلاق والاستمرار، والوصول، والحصول على الرتبة الأولى في السباق.

ولأجل أن تتّضح هذه الدافعيّة نقول:

أوّلاً: لازم الخلقة.. الخصلة الأولى

إنّ الخلائق بما هو خلائق لا يمكن لهم عقلاً أن يكونوا في رتبة الخالق أبداً، لبديهة وهي أنّ الفقير المطلق -ونقصد به المحتاج بالذات في كل شيء- لا يمكن أن يصبح غنيّاً مطلقاً، وهذه من أهمّ القواعد العقليّة التي تحكم على الإنسان -الرجل والمرأة- باستحالة الوصول إلى الغنى الذاتيّ، لكونه فقيراً بالذات.

فالإنسان -الرجل والمرأة- فقيرٌ بالذات، وهذا الفقر الذاتيّ موجود ومندكّ في صميم تركيبته الوجوديّة، بتقرير: أنّ الإنسان لم يكن موجوداً، فوُجد، وهذا الوجودُ لم يكن إلّا لدخول علّة في البَيْن

فأخرجته من العدم إلى الوجود، فهو احتاج إلى علّة لإيجاده، والمقرَّرُ في محلّه أنّ المعلول يستحيل أن يكون علّة نفسه، لبطلانه، وإثباته بالأدلّة العقلية موكول إلى محلّه في أبحاثه المخصّصة في المسائل الحكميّة.

فنفس هذا الخروج من العدم إلى الوجود إثرَ دخول علّة خارجيّة عنه دليل على الفقر الذاتيّ الذي يتحلّى به هذا الإنسان -الرجل والمرأة-، والأمر يشمل جميع الكائنات.

ولمّا وُجِدَ هذا الإنسانُ بعد أن كان في العدم، أُثيرَ التساؤلُ الآتي: هل يستطيع هذا الإنسان -الرجل والمرأة- الاستقلال عن علّته الموجدة أم لا؟!، بحيث يصبح هذا الموجود الذي كان بالأمس محتاجاً إلى علّة توجده مستقلّاً عن العلّة تماماً، أي: أن يتحوَّلَ الفقيرُ بالذات إلى الغنيّ بالذات؟!.

فكان الجواب على ذلك - خلاصةً-:

أ- أنَّ فاقدَ الشيءِ لا يُعطيه، فإنّ من كان فقيراً بالذات كيف يمكن له يمنح لنفسه صفةً هو لا يملكُها ذاتاً؟!، فهذا ما تؤكّد على استحالتِهِ البديهة العقليّة.

ب - ما دام هذا الإنسان مخلوقاً، حيث يؤخذ في حقيقة هذا الوصف الاحتياجُ المطلقُ، وتبيّنَ احتياجُهُ في خروجه من العدم إلى علّة لإيجاده، فإنّ هذا الاحتياج غير منفكّ عنه البتّة. فلو قلنا بانفكاكه لورد في البَيْن التساؤل الآتي: ما الذي يجعل المخلوقَ المحتاجَ بالأمس إلى علّة توجِدُهُ مستغنياً في بقائه واستمراره في الوجود بعد وجوده؟!.

ولا توجد إلى الآن الإجابات المنطقيّة والعقليّة التي تتمكّن من الإجابة على هذا التساؤل.

ج ـ قال الحكماء: إنّ العلّة التي كانت وراء الاحتياج إلى علّة الإيجاد هي: صفة الإمكان التي يتّصف بها المخلوق الذي منه ـالإنسان رجلاً كان أم امرأةً ـ، وهذه الصفةُ تلازمُهُ، ولا يمكن سلبُها عنهُ، كمثل الزوجيّة للأربعة، فما دامت هذه الصفةُ تلازمُهُ فإنّ هذا المخلوق محتاج إلى من أوجده في البقاء أيضاً.

د ـ ولو قلنا: إنّ هذا المخلوق ـالمعلول ـ أصبح غير محتاج إلى الخالق ـالعلّة التي أوجدته ـ لانقلب الفقير بالذات إلى الغنيّ بالذات، وبتعبيرٍ قرآنيٍّ أصبح هذا المخلوقُ شريكاً للباري عزَّ اسمه وجلَّت قدرته، والأدلّة الوجدانيّة، والبراهين العقليّة، والأعراف الاجتماعيّة، والشواهد العلميّة تثبتُ أنّ الإنسان غيرُ قادرٍ على أن يديرَ نفسه ـمن قبيل إدارة أمعائه، وحركات قلبه، وجريان دمه... إلخ ـ فكيف يمكن أن يُصبحَ غنيّاً بالذات، ويُصبحَ مستقلّاً عن علّته الموجدة؟!!.

النتيجة لما قررنا الآن: أنّ الإنسان ـالرجلَ والمرأةَ ـ كما أنّه احتاج في إيجاده وحدوثه إلى علّة توجده، فإنه أيضاً محتاج إلى نفس العلّة في استمراره وبقائه.

ماذا نريد من هذا التقرير..

الجواب أنَّه: بما أنّ الإنسانَ مخلوقٌ محتاجٌ، وأنّ هذا الاحتياجَ والفقر الذاتيّ كان موجوداً قبل وجوده، وهو موجود بعد وجوده وغير ممكن الانسلاخ منه أبداً، لكونه يخالف البديهة العقليّة، بل ويخالف الوجدان والشواهد العلميّة، فإن هذا يشكّل في صميم تركيبة الإنسان

-الرجل والمرأة- شعوراً لا يمكن إزالته، وهو الشعور بالنقص، والاحتياج المطلق، فيجعله غير مستقرٍّ أبداً.

ثانياً: بصمة الخلق.. الخصلة الثانية.

ولكون الإنسان -الرجل والمرأة- مخلوقَينِ من قبل الباري سبحانه وتعالى، ومن طبيعة الخلقِ أن تتركَ في المخلوق بصمات الخالق، فإنّ أهمَّ بصمةٍ اقترنت بالإنسان هي: «**حبّ الذات**»، ولذا يُقال: إنّ الإنسانَ مُحبٌّ لذاته.

نتيجة اجتماع الخصلتين:

فمع اجتماع الأمرين في الإنسان -الرجل والمرأة-: الفقر الذاتيّ وحبّ الذات، تشكّلت عند الإنسان الدافعيّة إلى التحرّك، والبحث عن الكمال -وليس أيّ نحو من أنحاء الكمال، وإنَّما هو الكمال المطلق، فإنّ الفقير المطلقَ لا يسدُّ حاجتَهُ إلّا الغنيُّ المطلقُ-، فيستطيع الإنسان أن يسدّ هذا الاحتياج الذاتي في صميم التركيبة الوجودية له، التي تُسمَّى بـ«**الفطرة**»، وهذا هو منشأ القول: «**إن الإنسان مفطور على حبّ الكمال**».

نرجع الآن ونقول: إنَّ الإنسانَ زُوِّدَ من عناصر التسابق، ومن القابليّات للدخول إلى المضمار، وزُوِّدَ أيضاً بالدافع الذي سيدفعه إلى النزوع نحو الهدف السامي، وإلى التحرّك في المضمار، وإلى التسابق فيه، وإلى الوصول إلى المركز الأوّل، وهذا الدافع غيرُ محتاجٍ لأن يوجَدَ بإيجادٍ مستقلٍّ، بل إنّه ملازمٌ لنفسِ هذا المخلوقِ ما دام مخلوقاً[1].

---

(١) إنّ عدم فهم أغلب المفكّرين وكثير من علماء الغرب وفلاسفتهم لهذا الاندماج، وهذه الحقيقة في تركيبة الإنسان أدّى بهم إلى الدوران في نظريّات لعلّها تحلّ لهم المشكلة =

وإنّ هذا الدافع زُوِّدَ الرجلُ به لأجل تحقيق هدف خلقته، والمرأة أيضاً قد زوّدت بنفس الدافع لأجل تحقيق الهدف المشترك، وبشكل متساوٍ.

فثبت أنّ التسابق الذي ذكره القرآن الكريم في آياته وسوره المباركة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾(١) قد كان شاملاً للرجل والمرأة، وأنّ جميعَ الاحتياجات التي يحتاجُ إليها المتسابق في عالم الدنيا، للوصول إلى الهدف الذي خُلِقَ لأجله قد كانت متساوية بينهما.

التحفيز للوصول إلى الهدف:

قد يقول قائل: بما أنّ الدافع ذاتيّ موجود في الإنسان، وأنّه من صميم تركيبة خلقته، وصنعته، فهو يعني أنّه لا يحتاج إلى تحفيزات تحفّزه للوصول إلى هدفه، وغايته، فإنَّ من كان دافعه الذاتيّ هو محرّكه (كالجائع المندفع إلى الأكل بدافع ذاتيّ مستقل)، غيرُ محتاج إلى من يحفّزه للأكل، فلو أنّنا قلنا بأنَّ الدافع الذاتيّ وهو الجوع يحتاج إلى من يحفّز الجوع بنفسه في الإنسان لكان كلاماً غير منطقيّ من أصل، إذ من شأن الدافع الذاتيّ للجوع الاندفاع بالاستقلال، وهو غير

= الإنسانيّة التي تتفاقم يوماً بعد يوم، ولا تجد لها حلاًّ، وقد لاحظنا ذلك في علم التربية، وعلم الاجتماع، وعلم الإدارة، وعلم النفس، وعلم الفلسفة، بل ووجدنا انسحاب معطياتها على علم الاقتصاد، وعلم السياسة، فإنّ الالتفات إلى تلك الحقيقة التي هي من صميم تركيبة الإنسان -الفطرة-، والأخذ بمعطياتها، والالتزام بمقرّراتها سيقود الإنسان حتماً وجزماً إلى الوقوف على السعادة المطلقة، وإلى التحقّق بالحضارة الإنسانيّة الذي لم تزل البشريّة تنحو نحوه منذ نشأتها، وقد بينّا ذلك بحمد الله وعونه تفصيلاً في كتابنا «الفطرة والمشكلة الإنسانيّة».

(١) سورة الواقعة / ١٠-١١.

محتاج إلى تحفيز يدخل في تحريكه، فلماذا إذن وضعت في الآيات القرآنيّة التحفيزاتُ الكثيرةُ للجنّة، والحالُ أنّ الدافعَ الذاتيَّ هو من يملك القدرة على الدفع والحركة والإشباع للجوع الوجوديّ؟!.

الجواب على ذلك:

أنّه نعم؛ لأنَّ الدافع الذاتيّ يملك القدرة بحسب المعطيات التي أمام الإنسان كالهدف المشبع لرغبته الفطريّة لتحريكه، ودفعه نحو طلب الكمال المطلق، ومعلومٌ أنَّ الحاجةَ إلى إدخال عنصر التحفيز في البَيْن موجودةٌ مع أنَّ الجوعَ يملكُ القدرةَ على دفع المرء إلى الأكل، إلّا أنّ المشكلة التي قد تقع في طريق سدّ هذا الاحتياج هي اختيار نوعيّة الأكل، فإنّ الأكل الموجود في الخارج كثير جدّاً، وإنَّ العقلَ قد يستقلُّ في بعض الموارد بالاختيار، وفي بعضها لا يستطيع إلّا في التجارب الميدانيّة أو المخبريّة، ومنها يستطيع أن يختار الأكل المناسب لجسمه وبدنه ونفسيّته.

فالإنسان باحث عن الكمال المطلق إلّا أنّه قد يتصوّر أنّ الذي أمامه هو الكمال المطلق فإذا به يجدُهُ كمالاً نسبيّاً، وهو غير مراده الوجوديّ، فلكي تتّضح له الحقيقة لا بدّ من إدخال عناصر التحفيز لأجل إرجاع الإنسان إلى الصراط المستقيم، وإلى ما تطلب فطرته بشكل دقيق.

فقد يتصوّر الإنسان في عالم الدنيا أنّ ما تطلبه الفطرة من الكمال المطلق موجود في طلب الجاه والوجاهة، فيأتي دور التحفيز القرآنيّ إلى الجنّة، وإلى المثوبات الإلهيّة العظمى لترشد الإنسان وتوجّهه نحو ما تطلبه الفطرة حقّاً، وتفتح عقله على أنّ ما طلبتَهُ وأردتَهُ لم يكن في الحقيقة إلّا سراباً، وأنَّ الوجاهةَ الحقيقيّةَ الواقعيّة ليست إلّا عند

اللّه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾(٢).

وهكذا الحال في القوّة، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾(٣).

وهكذا الحال في الأمر الذي هو المحرّك الأساسيّ وراء المحركات الماديّة، قال تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ...﴾(٤).

فإنَّ هذه الحقائقَ من أهمِّ الأمور التي يقدّمها القرآن الكريم إلى الإنسان ويطلب منه أن يفتح عين قلبه عليها، حتى يُدركَ الواقع كما هو، ولا يقعَ فريسةَ الأوهامِ، والسرابِ، فيضيعَ وقد يُضيِّعُ الآخرين.

المحصّلة النهائيّة:

يتبيَّن من خلال ما تقدَّم، أنّ الأصالة في القرآن الكريم للتساوي بين الرجل والمرأة، وهو يعني أنّ الدين الإسلامي يرى أصالة التساوي، وليس (كما يدّعيه البعضُ) عكسَ ذلك.

(١) سورة النساء / ١٣٩.

(٢) سورة فاطر / ١٠.

(٣) سورة البقرة / ١٦٥.

(٤) سورة الرعد / ٣١.

الفصل الخامس

الإشكال والتساؤل
حول المفردات القرآنيّة

موضع الإشكال على بعض مفاهيم القرآن والإسلام

وبعد أن انتهينا من إثبات صلاحيّة المرأة للدخول إلى مقام الصالحين، ومنه إلى إثبات الأصل الأوّليّ في الإسلام وهو التساوي بين الرجل والمرأة، يبقى أن نفهم الآيات القرآنيّة التي يتمسّك بها البعض في توجيه سهام التّهم إلى الإسلام، وإلى الدستور الإسلاميّ وهو القرآن الكريم، والتي مفادها؛ أنّ الإسلام ليس دين المساواة بين الرجل والمرأة، وأنّ القرآن الكريم يفرّق بين الرجل والمرأة، وأنّ تعاليم الإسلام مبنيّة على التمييز، معتبرين الأصالة للتمايز والتفريق.

قاعدة رئيسيّة:

من الضروريّ بمكان في مثل هذه الموارد من البحوث وضع جميع المفاهيم والمفرادت ضمن حلقة واحدة، ومن ثَمَّ دراستُها دراسةً دقيقةً، منهجيّةً، وموضوعيّةً عاليةً، ومن ثَمَّ فرزُ الأصولِ عن الفروعِ، والمحورِ المرجعيِّ وما يدورُ في فلكه، عن المسائلِ الثانويّة.

فالبحث المتقدّم يُعتبرُ «**المحورَ المرجعيَّ**»، و«**الأصلَ الموضوعيَّ**» -**المحكمَ**- في موضوع المرأة والرجل، وما سيأتي من المفردات الأُخر بعد ذلك -**المتشابهات**- فإنّها بلا أدنى شك ستُحوَّل إلى المركز الرئيسيّ القائم على القواعد الكليّة التي اصطلحنا عليها بـ«**الأصول**» و«**الأصل الموضوعيّ**» و«**المحور المرجعيّ**»، فتقاس عليها، وتُقيَّم تلك المفردات من خلال الأصل والمحور والحكم، وتُفرَزُ بعد ذلك في خانتها الخاصّة.

وإذا تبيَّن وجودُ تنافٍ ظاهريّ بين المحور وتلكم المفردات فإنّ التعامل معها سيكون سهلاً جدّاً.

وأهمُّ ما أوقعَ الكثيرَ في سوءِ فهمٍ للإسلام وللقرآن هو انطلاقتهم الخاطئة في دراسة المفاهيم القرآنيّة والإسلاميّة، وبالخصوص في دراسة المسائل المتعلّقة بالمرأة، فإنهم ينطلقون كما -نشاهد- من المفردات[١] التي لا تشكّل المِحورَ المرجعيَّ من التركيبة البنائيّة للإسلام والقرآن، فيتّخذونها محوراً مرجعيّاً، وإذا وجدوا نصوصاً أخرى يتعارض ظاهرها مع ما اعتبروها النصّ المحوريّ المرجعيّ، حكموا على الإسلام ودستوره بالتناقض، أو بالظلم أو التعسّف، أو بالتمييز والتفريق، وما شابَهَ ذلك من الأحكام القاسية اللاموضوعيّة.

وفي موضوع بحثنا حول المرأة فإنّنا قد تعرّفنا على الرؤية الإسلاميّة لها من خلال دستوره وهو القرآن الكريم، بقي هنا أن نفهَمَ تلكم النصوصَ التي ظاهرُها يوحي بالتفاضل فيما بينهما.

---

(١) سيأتينا ذكر تلكم المفردات لاحقاً إن شاء اللّه تعالى.

تساؤلات مهمّة:

ولكن، من الضروريّ أن نعرف أنّه: هل المفردات التي يوحي ظاهرها بعدم المساواة تُفرَزُ ضمنَ قائمةِ الأصلِ الموضوعيِّ والمحور المرجعيِّ، أم أنّها لا تدخل ضمن تلك القائمةَ وإنّما تصنّف في قائمة المسائل الثانويّة، والمفردات التنظيميّة التي تُلحَظُ فيها خصوصيّات المهام؟! -سيأتينا تفصيل تعريفها لاحقاً إن شاء اللّه تعالى-.

وقد يقول قائل: إنَّ تلكم المفردات التي ظاهرها التمايز والتفريق والتفاضل دخيلة على الثقافة الإسلاميّة، وأنّها لا تمثّلها أبداً، وهذا ما لا يقبله أحد، لثبوتها في دستوره العظيم وهو القرآن الكريم.

فإذا قلنا: إنّها تدخل ضمن قائمة الأصل الموضوعيّ فبهذه الحالة سنواجه إشكاليةَ التناقض وبشكلٍ واضحٍ وصريحٍ، وأظنّ حينها أنّه لن يكون سهلاً التخلُّصُ من تلك الإشكاليّة، وستتمكَّنُ هذه الإشكالية من رقبةِ النظرةِ الإسلاميّة!

وأمّا إذا قلنا: إنّها لا تدخل في قائمة الأصل الموضوعيّ من أصل، ففي هذه الحالة ليس من حقّ أيِّ أحدٍ اتّهامُ الإسلام بأنّه يميّز بين الرجل والمرأة، أو أنّه يرى أفضليَّةَ الرجلِ على المرأة.

نعم، سيبقى الكلامُ في كيفيّة التوفيق بين هذه المفردات لرفع أو لدفع تلك الإشكالية، فلعلّنا سنكتشف أنّ بينهما تمامَ الانسجام والتوفيق.

خطة البحث:

إنّ البحث في تفاصيل المسائل التي يُشكَلُ من خلالها على الإسلام والقرآن سيُخرِجُنا عن خطّة بحثنا هذا، لذ سوف سنتحدّثُ عن الفارق الجوهريّ بين ما تقدَّم الحديث عنه وما يمكن اعتباره، وبين المسائل المستشكل فيها، وبعدها نسلّط بعض الضوء على بعض تلكم المفردات إن شاء اللّه.

محوريّة المساواة وانسجام المفردات

نقول نافلةً: إنّ الآيات التي تقدَّم ذكرها في إثبات المساواة، بعد إثبات إمكانيّة وصول المرأة أُسوةً بالرجل إلى أقصى مراتب الكمال الوجوديّ المتصوّر -إنّ هذه الآيات- تشكّلُ الآياتِ المحوريّةَ المرجعيّةَ، وتُعتبَرُ الأصلَ الموضوعيَّ، وإثباتَ أنّها الأصل المرجعيّ والمحوريّ في إثبات التساوي في القرآن الكريم بين الرجل والمرأة هو بتوجيهِ وتوضيحِ الخطاب القرآنيّ (في نصوصه على مستويات العناصر الأربعة التي ذكرها) بتجلّي التساوي على حدٍّ سواء. فكما أنّ الرجل، هدفه ومضماره ووسيلته وقابليّاته قد بيَّنها القرآن الكريم، وحدّدها له، فإنّه في الوقت نفسه قد حَدَّدها نفسَها وذاتها للمرأة أيضاً، وهذا ما يدعونا إلى القول: «إنّ الأصل الموضوعيّ والمحوريّ هو التساوي بين الرجل والمرأة في النظريّة القرآنيّة».

وإذا كانت هناك ثمّة آياتٌ ظاهرُها عكسُ ذلك فلا بدّ من إرجاعها إلى ذلك الأصل والمحور، ومنها ننطلق في إثبات انسجامها مع الأصل والمحور، مع رفع التوهّم الحاصل ظاهراً من المفردة، الموجب لإيجاد سوء فهم للإسلام ودستوره الشريف.

وما كانت تشكّلات تلكم النصوص القرآنيّة إلّا بناءً على مقتضيات

متطلّبات الوجود والعالم، فأُخِذت الواقعيّةُ والحقيقةُ في صميم الخطاب القرآنيّ، فلذا نجدُ من يريدُ أن يُشكِلَ على الخطاب القرآنيّ ونصوصِه لا بدّ من أن ينظر إلى الرؤية القرآنيّة للعالم والوجود، فإذا استطاع أحد أن يخلخلها، في هذه الحالة استطاع أن يزعزع البناء التشريعيّ أيضاً، وأمكنَ هدمُهُ.

وأما إذا كان البناء متيناً، وغير قابلَ للخلخلةِ والزعزعةِ أبداً؛ فإن ما سوف يتقوّم بهذا البناء سيأخُذُ أحكامَ قوّتِهِ ومتانتِهِ منهُ، وبحسب ما بيّنّا سابقاً وبشكل موجز جدّاً نجدُ أنّ البناءَ القرآنيَّ على مستوى الرؤية الكونيّة للعالم والوجود قائمٌ بكيانٍ متين جدّاً، ولا يملك أحدُ البراهين العقلية أن يهدم جزءاً واحداً من ذلك البناء المحكم، بل ولا يقدَر على هزّ لَبِنَةٍ من لَبِناتِهِ المتينة، وذلك لأنّ البراهين العقليّة كُلَّها تعضد في إثبات ما تقدّمه الآياتِ القرآنيّةَ، وسُورَهُ المباركة.

فإنّه ما وُضعت آية من آيات القرآن الكريم الرائعة إلّا في تشكيلة وجوديّة حقيقيّة، تترابط سلسلتها بعضها ببعض، وتتماسك حلقاتها بشدّة، وتتلاحم رؤيتها للعالم والوجود، لتقدّم للإنسانِ -الرجل والمرأة- أطروحةً صحيحةً معتمدةً على معطيات الواقع والحقيقة للوجود والعالم، فتضمنَ لمن يتحلّى بها حياةً حضاريّةً عاليةَ الجودة، وتُؤمِّنَ له حياةً سعيدةً كما تريدُهُ فطرتُهُ، ويبحثُ عنها الإنسان.

الآيات الظاهرة في التفاضل بلحاظ الكمّ:

ولو أردنا أن نبحث في النصوص القرآنيّة من حيث «**الكمّ**»، فإنّ الآيات التي ظاهرها التفاضل قليلة جدّاً أمام الكمّ الهائل

للآيات التي فيها لسان المساواة بين الرجل والمرأة، فمن يتمسّك بكمٍّ قليل من الآيات القرآنيّة ليُثبت من خلالها الرؤيةَ المحوريّة والأصلَ الموضوعيَّ لهذا الكتاب العزيز حول الرجل والمرأة، تاركاً الكمَّ الهائلَ من الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن المساواة بين الرجل والمرأة فإنّ هذا يُعدّ ظلماً وإجحافاً، لا موضوعيّةً، ولا إنصافاً، والعقل والعقلاء لا يقبلون بمثل هذا الظلم والإجحاف لأبسط الكتب والأفكار الإنسانيّة، فكيف يُقبَلُ هذا ضِدَّ القرآن الكريم؟!!.

أظنّ أنّه ينبغي إعادةُ النظرِ والحكمِ في القرآن الكريم حول رؤيته وثقافته ومبناه للرجل والمرأة.

البحث في كيفيّة الانسجام:

وأمّا من حيث الرؤية الأساسيّة للإسلام المستمدّة من نصوص دستوره، فإنها لتُؤكِّدُ -كما تبيَّن- على المساواة وليس على التفاضل، ومن يقف على حقيقة التوجّهات الإسلاميّة، وعلى واقع منهج الإسلام كما وقفنا عليه سابقاً، لا يمكنه أن يتّهِمَهُ بالانحياز، أو التمييز، أو غير ذلك من الاتّهامات، وهي لا تجد لها موقعاً أمام واقعيّة أطروحات الإسلام، ومنطقيّة أفكاره، وقوّة مفاهيمه، ومن هنا وقع البحث في النظر في كيفيّة انسجام الآيات الكريمة التي ظاهرها عدم المساواة مع الآيات المحورية.

ومن هنا سنتوجَّهُ إلى دفع الإشكال من خلال تقديم بعض المقدّمات الأساسيّة إن شاء اللّه تعالى.

المقدمة الأساسيّة: الفارق التكوينيّ الطبيعيّ

من الإنصاف الاعتراف بـ«**الفروقات الطبيعيّة التكوينيّة**» بين الرجل والمرأة، وهو أمرٌ جليٌّ، وهذه الفروقات التي انتهت إليها الدراساتُ العلميّة الحديثة كالآتي:

١- الفروقات على المستوى البيولوجيّ العضويّ.

٢- الفروقات على المستوى الفيسيولوجيّ الخلايا والأعصاب.

٣- الفروقات على المستوى التشريحيّ الهيكليّ.

٤- الفروقات على المستوى السيكولوجيّ النفسيّ.

فأمّا على المستوى «**البيولوجيّ**»، فهو يحتوي على الفروقات من جهتين: فروقات مكروسكوبيّة، وفروقات عضويّة مكروسكوبيّة، وتوجَدُ أيضاً الفروقاتُ في الخلايا.

وأمّا على المستوى «**التشريحيّ**»، فإن عظام الرجل تختلف عن عظام المرأة من عدّة حيثيّات: الشدّة والقوّة والكثافة، إضافة إلى تركيبة الحوض، والأعضاء التناسليّة، والأنسجة، والعضلات.

وأمّا على مستوى الاختلاف «**الفيسيولوجي**»، فإنّك ستجد الفروقات في الدم من حيث نسبة الحديد، والخلايا الحمراء، وكمية الهيموغلوبين.

ومع النظرة العلميّة إلى المخ، فإنّ عدد خلايا مُخِّ الرجل تزيد عن عدد خلايا مُخِّ المرأة بنسبة ٤٪، كما أنّك ستجد الاختلاف بين المخّين في الوزن إذ يزيد وزن مُخُّ الرجلِ عن وزن مُخِّ المرأة بـ١٠٠ غرامٍ. وأمّا على مستوى الحجم، فإن حجمَ مُخِّ الرجلِ يزيدُ عن حجم

مُخِّ المرأة بـ٢٠٠ سنتيمترٍ مُكَعَّبٍ، وستجد فيه أيضاً اختلافاً في نسبة الألياف الموصلة، إذ نسبتها في المرأة أكثر من الرجل. وكذا ستجد الاختلاف في الجسم الثفنيّ وهو محلّ انتقال الإشارات العصبيّة، والجهاز الحوفيّ العميق وهو مركز العواطف.

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة إلى الرجل والمرأة وخاصّةً على المستوى الفيسيولوجيّ، فإن أهمّ سؤال سيرد في البَيْن هو: هل يترك هذا الاختلاف أثراً على «**المستوى السيكولوجي**»؟!.

والجواب هو: أجل، إنّه لَيترُكُ أثراً فعّالاً وعميقاً وواضحاً، وهذا ما أثبتته الدراساتُ العلميّةُ الحديثةُ، فإليكَ بعضَ الأمثلة على ذلك:

١ ـ أنّ نسبةَ العواطف عند المرأة أكثرُ من الرجل، والسبب يرجع إلى حجم الجهاز الحوفيّ العميق الذي هو أكبر عند المرأة من الرجل، وهذا بطبيعته سيترك الأثر في سلوك المرأة ما لا يتركه على الرجل.

٢ ـ كما هو معلوم، أنّ نسبة النسيان عند المرأة أكثر من الرجل، وذلك يرجع إلى تركيبة المخِّ بلحاظ الحجم والوزن ونسبة الخلايا، إضافةً إلى تأثير ذلك على الطبيعة التعلميّة لدى الفتاة والفتى.

٣ ـ أنّ فترة الطمث (العادة الشهريّة) التي تُبتلى بها النساء، والتي تمرّ فيها الهرمونات بتغييرات كبيرة جدّاً، تؤثِّر في نفسيّاتهن، وتُظهِرُ عليهنّ أعراضاً سلوكيّة مختلفة، إلّا أنّ الرجلَ بعيدٌ عن هذا العالم بسبب عدم مرورِهِ بهذه الفترة.

٤ ـ أنّ اختلاف الهرمون الذي تفرزه الغدّة النخاميّة بين الرجل والمرأة يؤثِّرُ في المزاج، فالهرمون «**أوكسيتوسين**» الذي يضبط المزاج يزداد

فاعليّةً عند المرأة بسبب هرمون آخر يُسمّى «**الأستروجين**» وهو هرمون الأنوثة، إلّا أنّ هرمون الذكورة «**التستستيرون**» يؤدّي به إلى خفض فاعليّتِهِ، وبزيادة الفاعليّة يؤثِّرُ في مزاجِ المرأةِ بشكل حادٍّ وملحوظ.

إنّ النتيجة الطبيعيّة لهذه الفوارق بين الرجل والمرأة على المستوى التكوينيّ الذي لا يمكن تغييبه أو تهميشه، سينعكس بحدّ ذاته عليهما ليحدّد لهما الوظائفَ الملائمة لكلٍّ منهما، وهذا ما يؤكّده العالم الإنجليزي البروفيسور «**مارك فان فوجت**» من جامعة «**كينت**» الإنجليزية في دراسته، وإليك ما جاء في «**شبكة النبأ المعلوماتيّة الإلكترونيّة**»:-

«وقال البروفيسور مارك فان فوجت من جامعة كينت في جنوب إنجلترا: إنّ أبحاثاً جديدةً أظهرت أنّ الرجال يتجمّعون معاً ويتعاونون بشكل جيّد في مواجهة المحن لحماية مصالحهم أكثرَ من النساء وهو الأمر الذي يمكنُ أن يفسِّرَ سببَ أنّ الحروبَ أمرٌ شبهُ مقصورٍ على الرجال فقط».

وقال في كلمةٍ أمام اجتماع للجمعيّة البريطانية لتقدّم العلوم: «إنّ الرجال يردّون بشكل أقوى على التهديدات الخارجيّة وقد أطلقنا على ذلك.. التأثير المحارب للرجل.

كما أنّ الرجال أكثرُ احتمالاً لدعم بلدٍ يدخلُ حرباً. والرجال أكثرُ احتمالاً للانضمام إلى القوات المسلّحة. والرجال أكثرُ احتمالاً لقيادة المجموعات بأساليبَ أكثرَ تحكّماً وعسكريّةً من النساء».

وقال فان فوجت: «إنَّ هذه النتيجة تتواءم مع نتائج دراسات سلوكيّة مختلفة».

وفي تجارب شملت ٣٠٠ طالبٍ وطالبةٍ جامعيين قال فان فوجت: إنَّ فريقه أعطى المتطوّعين مبالغَ ماليّةً صغيرةً كان يمكنهم إمّا الاحتفاظ بها أو استثمارها في صندوق مشترك سيتمّ زيادته إلى الثلثين وتوزيعه بالتساوي. ولم يعرف أحد من الطلاب ما يقوم به الآخرون.

وتعاون كلّ من الجنسين في الاستثمار في الصندوق. ولكن عندما تمَّ إبلاغ المجموعات بأنهم يواجهون منافسةً من جامعات أخرى حرص الذكور على الاستثمار أكثرَ من الاحتفاظ بالمال في حين ظلَّ عددُ الإناث المساهمات في الصندوق كما هو.

وقال فان فوجت: «كُلُّنا يعرِفُ أنَّ الذكورَ أكثرُ عدوانيّةً من الإناث». وأضاف: «أنّ التعاون مطلوب لإقامة مؤسسات وحكومات ولشنّ حروب».

وأردف قائلاً: «تعاون الذكور سلاح ذو حدّين»[١].

وجاء في كلمات الدكتور رشاد علي عبد العزيز موسى، في كتابه «**سيكولوجية الفروق بين الجنسين**»، (مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م)، ما يؤكّد على وجود الفروقات بين الرجل والمرأة، فإليك بعض ما جاء في هذا الكتاب:

«... ولا تزالُ الحوادثُ البشريّةُ تُبرهِنُ على أنّ المساواةَ بين الجنسين في الأعمال والوظائف تؤدّي إلى انقلاب اجتماعيّ، وقد يؤدّي هذا الانقلاب إلى ثورةٍ عنيفةٍ ضدَّ النظم والقوانين الاجتماعيّة.

---

(١) الثلاثاء ١٩/ ايلول/ ٢٠٠٦ - ٢٠/ شعبان٢٤/ ١٤٢٧ www.annadaa.org
ونقلت جريدة نهضة مصر الإلكترونية الخبر موجزاً في العدد: ١٤- ١- ٢٠٠٤م.

وجملةً، تُوجَدُ فروقٌ بين الذكر والأنثى في الاستعدادات الجسميّة والقدرات العقليّة والنزعات الخلقيّة...»[١].

ثمّ قال: «فإنّ الأنثى تنظر إلى العالم متأثّرةً بوجدانها أكثرَ من الذكر، كما أنّها عمليّةٌ أكثرُ من فلسفيّة. في حين أنّ الذَّكَرَ أكثرُ استعداداً بطبيعته وقواه الجسميّة للزعامة والقيادة، لذا فإنّه أكثر استعداداً للتشريع والإبداع، أمّا الأنثى فإنّها أكثر استعداداً للتنفيذ. كما تَبيَّنَ من نتائج علم النفس الارتقائيّ أنّ الأنثى عادةً تسبقُ الذَكَرَ في القدرة على الكلام وأنّ لعبها يختلفُ في النوع والأسلوب عن لعب الذكر. كما أنّها تفوق الذكر في التعبير عن مشاعرها بحدّة مثل البكاء والضحك والغضب. وتختلف أيضاً الأنثى عن الذكر عند نشوب نزاع أو مشاحنات بينهن.

وتظهر الفروق بين الجنسين في الناحية الإدراكية وخاصّةً في المواد التي تحتاج إلى بحث فكريّ واستنباط وابتكار، فالإناث يتساوَيْنَ مع الذكور بل ويتفوّقْنَ في السنين الأولى من سني الدراسة التي يكون التعليم فيها محصوراً في دائرة المحسوسات إذ إنهن يستظهرن المعلومات بسهولة ويولَعْنَ بالأدب قبل أن يُولَعَ به الذكورُ ويُجِدْنَ الكتابة الإنشائيّةَ في أوّل الأمر، لاعتمادهنّ على محاكاةِ ما قرأْنَ في كتب الأدب.

وهذا يظهر بنوع خاصّ في القصص، فالحكاية التي ينشئها الذكر تكون في الغالب مفكّكَةَ الأوصال، أمّا الأنثى فتنسجُ حكايتَها نسجاً

(١) موسى: الدكتور رشاد علي عبد العزيز: سيكولوجية الفروق بين الجنسين: ٧، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

محكماً مترابط الأجزاء كاملَ العناصر. كما أثبتت التجارب أنّ الذكور يتفوّقون على الإناث في العلوم والرياضيّات، في حين تتفوّق الإناث في الفنون كالرسم والتصوير والموسيقى والأدب وتعلّم اللغات. وتُعزى هذه الفروقُ إلى أنّ الأنثى تتأثّر بالحقيقة الحسيَّة الواقعيّة أكثر ممّا تتأثّر بالفكرة العامّة، في حين أنّ الذكر يهتمّ بالعلاقة بين الأشياء أكثر ممّا يهتمّ بالأشياء ذاتها، وأنّ عقل الأنثى يتعلّق بالحسيّات أكثرَ من عقل الذكر الذي يسبح في عالم المعقولات أكثرَ من عقل الأنثى. كما أنّ الذكور أكثر ميلاً إلى قراءة كتب المغامرات، والقصص المشتملة على مفاجآت غريبة، وكتب الميكانيكا والطيران والكهرباء، وكتب الاختراع والاكتشافات العلميّة، وكتب العلوم الطبيعيّة والرياضة البدنيّة، وتراجم الرجال، وكتب الأسفار، وحكايات الغابات والأدغال، في حين تميل الإناث إلى قراءة الكتب الرومانسيّة، والكتب المتعلّقة بالحياة المنزليّة والمدرسيّة وحياة الحيوان والنبات والأزهار، والشعر.

وليس معنى وجود هذه الفروق بين الذكور والإناث، أن يُعتبَرَ هذا استصغاراً لشأن الأنثى أو حطّاً من كرامتها، إذ إنّ التفرقةَ لا تستدعي الحطّ من الكرامة، كما أنّ صفات الأنثى الخاصّة لم تنشأ عن تأخّرها في سلّم الترقّي، ولكنها نتائج طبيعيّة للاتجاه العامّ المستمر نحو التخصّص وتوزيع الأعمال. فالأنثى لم تتأخر عن الذكر، بل إنّها سارت معه جنباً لجنب، ولكن تقدّمها دائماً إلى الغاية التي ترغمها طبيعتها على السير نحوها. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ قياس قوة الأنثى الفكريّة بقوّة الذكر قياس باطل، وإنّ استنباط أنّ الذكر أعلى منزلة من الأنثى الفكريّ بقوة الذكر قياس باطل، وإنّ استنباط أنّ الذكر أعلى

منزلةً من الأنثى لعجزها عن التفكير الفلسفيّ استنباط كاذب. فإنّ تقدير الذكر للقوانين والأحكام العامّة شيء، وتقدير الأنثى للأمثلة والنماذج الحسيّة الماديّة شيء آخر. ومن ثمّ، لا يمكن القول: إنّ هذا أقلُّ منزلةً من ذلك، فكلّ منهما ضروريّ في الحياة، والأنثى باتجاهها تُكمِلُ الذَكَرَ في اتجاهه، فكلّ منهما مكمّل للآخر. وعليه، فإنّ القضيّة ليست قضيّةَ تفضيلِ الذَكَرِ على الأنثى، ولكنها قضيّةُ بيان اختلاف كلٍّ عن الآخر في الصفات البدنيّة والعقليّة...»[1].

فالشيء الجميل الذي يشير إليه الكاتب هو أنّ هذه الفروقاتِ الحتميَّةَ بين الرجل والمرأة لا ينبغي أن تكون دافعاً سلبيّاً لمن لا خبرةَ له في الفروقات وملازماتها وآثارها بحيث يدفعه إلى القول بالتساوي بين الجنسين، فإنّ هذه النتيجة غير منسجمة ولا متوافقة مع تلكم المقدّمات الطبيعيّة الموجودة في عالم طبيعة الرجل والمرأة.

وما قد بيّنه الدكتور رشاد موسى لَمْ يَكُنْ إلّا بناءً على النتائج العلميّة التي انتهى إليها من خلال التجارب والاختبارات العديدة في مختلف المجالات.

ولنأخذ الفصل الخامس نموذجاً للدراسات التي أُجريت في موضوع القيم، والذي يهمّنا في البين النتائج التي انتهت إليها الدراسات والبحوث، وسنورد ما جاء في هذا الفصل فقراتٍ مستقطعةً بما لا يُخِلُّ بالمضمون، ليكونَ القارئُ الكريمُ واقفاً على طبيعة الدراسة ولو إجمالاً، إنصافاً لها، وللنتائج التي انتهت إليها، فإليكَ ما جاء فيه:

---

(١) موسى: الدكتور رشاد علي عبد العزيز، سيكولوجية الفروق بين الجنسين: ٨ - ٩، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

«القيم

المدخل إلى مشكلة البحث:

إهتمَّ كثيرٌ من المفكّرين والفلاسفة بدراسة القيم، حيث إنّها المحور الرئيسيّ لموضوع علم الأخلاق، كما أنّها نتاج اجتماعيّ، يتعلّمها الفرد ويكتسبها ويتشرّبها ويستدخلها تدريجيّاً ويضيفها إلى إطاره المرجعيّ للسلوك، ويتمّ ذلك من خلال التنشئة الاجتماعيّة، وعن طريق التفاعل الاجتماعيّ، حيث يتعلّم الفرد أنّ بعضَ الدوافعِ والأهداف تفضُلُ غيرَها ويفضِّلُها على غيرها، أي: أنّه يقيّمها أكثرَ من غيرها (حامد زهران، ١٩٧٣، ص١١٧).

ويمكن تصنيف القيم وفقاً للأبعاد التالية:

بُعد الشكل: ويُقصُد بها أَنَّهُ إمّا أن تكون القِيَمُ إيجابيّة أو سلبيّة.

بُعد المحتوى: وتُصنّف القيم على هذا الأساس إلى قيم نظريّة، قيم اقتصاديّة، قيم جماليّة، قيم اجتماعيّة، قيم سياسيّة، وقيم دينيّة كما في اختبار القيم لألبورت وفرنون ولندزي.

بُعد القصد: ويُقصد بها القيمُ التي تتّصل بالأسلوب الذي يفضّله الفرد، أو الطريقة التي بها ينفّذ فعلاً معيّناً، وهناك قيم خاصّة بالوسائل وأخرى خاصّة بالأهداف.

بُعد العموميّة: ويُقصد بها وجودُ بعض القيم تكون خاصّة بمواقف معيّنة (قيم الدور الذي يقوم به فرد معين) ووجود قيم تنطبق على مواقفَ عريضةٍ منوَّعة.

بُعد الشدّة: ويُقصد بها تحديدُ قوّة قيمة معيّنة بالجزاءات التي تنطبق

عليها[1]، ودرجة الكفاح في سبيلها. (جابر عبد الحميد وسليمان الشيخ، ١٩٧٨، ص٢٢٩ - ٢٣٠).

وفضلاً عن ذلك، تتميَّز القيم بمجموعة من الخصائص التالية:-

أولاً: تهتمُّ بالأهداف البعيدة التي يضعها الإنسان لنفسه وليس بالأهداف الفرعيّة.

ثانياً: تترتّب فيما بينها ترتيباً هرميّاً، ويعني هذا أنّ هناك قيماً لها الأوّلويّة في حياة الفرد عن باقي القيم كالقيمة الدينيّة عند رجل الدين، تقع في المنزلة الأولى لديه عن باقي القيم، بل تُعتبَرُ القيمُ خاضعةً لسيطرتها، نفس الأمر بالنسبة لرجل التجارة فالقيمة الاقتصاديّة لها الأوّلويّة لديه عن أيّة قيمة أخرى.

ثالثاً: تتميّز عن الاتجاهات وعن الرأي العام في صعوبة تغييرها؛ لأنّ جذورها عميقة في حياة الإنسان منذ السنين الأولى من نموّه، ومن الصعب اقتلاعها.

رابعاً: ترتبط بالمستويات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فهناك نظام اجتماعيّ أو ثقافة معيّنة تدعم قيماً عن غيرها وهكذا.

وأخيراً: ترتبط بالأنا الأعلى لدى بعض علماء النفس التحليليّ وتقع في مستوى النواحي الأخلاقيّة لديهم. (عطية محمود هنا، ١٩٥٩، ص١٨٥ - ١٨٦)».

ثمّ قال في (ص١٢٥ ـ ١٢٦): «وطالما أنّ القيم عبارة عن مجموعة من الأحكام يُصدِرُها الفرد على بيئته الإنسانيّة والاجتماعيّة والماديّة،

(١) هكذا في الطبعة والصحيحُ: عليها.

فإنّه يمكن الاستدلال على أنّ هذه الأحكام تختلف باختلاف النوع، والدليل على مصداقيّة هذا وجود العديد من الدراسات والبحوث التي ألقت الضوء على الفروق بين الجنسين في تفضيل بعض القيم على بعضها الآخر. فقد قام عطية هنا (١٩٦٥) بتطبيق اختبار القيم من إعداد البورت وفرنون ولندزي على عيّنة مكوّنة من ١٦٦ طالباً و١٤٠ طالبةً بكليات مختلفة، وانتهت النتائج إلى عدم وجود فروق دالّة بين الذكور والإناث إلّا في قيمتين فقط، وهما القيمة النظريّة، حيث تفوَّق الذكور على الإناث، والقيمة الجماليّة، وفيها تفوَّقت الإناث على الذكور.

وانتهت نتائج دراسة بلانت وسوزيرن (Plant and Sauthern 1977) إلى وجود فروق بين الذكور والإناث في درجات القيم. فقد تفوَّقت الإناث على الذكور في القيم الجماليّة والاجتماعيّة، بينما تفوَّق الذكور على الإناث في القيم النظريّة السياسيّة والاقتصاديّة. وقام سليمان الخضري الشيخ (سليمان الشيخ ١٩٧٨)، بدراسة لإيجاد الفروق بين الجنسين في القيم في المجتمع القطري... وتفوَّق البنين على البنات في القيم التالية: السياسيّة والنظريّة والاقتصاديّة وكانت الفروقُ دالَّةً إحصائيّاً، كما تفوَّقت البنات على البنين في القيمتين الجماليّة والدينيّة وكان الفرق دالاًّ إحصائيّاً، ولم توجد فروق ذات دلالة بين متوسّط البنين والبنات في القيم الجماليّة».

مناهج البحث:

(١) أدوات البحث: إستخدَمَ الباحثُ أداتين لقياس القيم هما كالتالي:-

* إعتمد هذا الاختبار على نظرية سيرانجر التي تقوم على أنّ الأفراد يتوزّعون بين أنماط متنوّعة من الشخصية بدرجات متفاوتة.

وقد حدّد سبرانجر ستة أنماط للشخصية هي: النمط النظريّ، النمط الجماليّ، النمط الاقتصاديّ، النمط الاجتماعيّ، النمط السياسيّ والنمط الدينيّ. ويعتبر هذا الاختبارُ أوّلَ أداةٍ وُضعت لدراسة القيم، وقد تمَّ نقله إلى اللغة العربية (عطية هنا ١٩٥٩). وقد قام ألبورت وفربون ولندزي بإعداد اختبار مقس[1] لِسِتِّ قيمٍ بناءً على الأنماط المذكورة آنفاً.

ويتضمّن الاختبار ١٢٠ سؤلاً[2] موزّعاً بالتساوي على القيم الستِّ التالية:

(١) القيمة النظريّة: ويُقصَدُ بها اهتمامُ الفرد وميلُهُ إلى اكتشاف الحقيقة، فيتخذ اتجاهاً معرفياً من العالم المحيط به، ويسعى وراء القوانين التي تحكم هذه الأشياء بقصد معرفتها، ويتميَّز الأشخاص الذي تسود عندهم هذه القيمة بنظرة موضوعيّة نقديّة معرفيّة.

(٢) القيمة الاقتصاديّة: ويُقصَدُ بها اهتمامُ الفرد وميلُهُ إلى ما هو نافع، ويتّخذ من العالم المحيط به وسيلةً للحصول على الثروة وزيادتها عن طريق الإنتاج والتسويق والاستهلاك واستثمار الأموال. ويتميَّز من لديهم هذه القيمة بنظرة عمليّة.

(٣) القيمة الجماليّة: ويُقصَدُ بها اهتمامُ الفرد وميلُهُ إلى ما هو جميل

(١) هكذا وردت في الطبعة وأظنّ أنّها: مقياس.

(٢) سؤالًا.

من ناحية الشكل أو التوافق أو التنسيق، ويتميّز الأشخاص الذين تسود عندهم هذه القيمة بالفنِّ والابتكار وتذوّق الجمال والإبداع الفنيّ.

(٤) القيمة الاجتماعيّة: ويُقصَدُ بها اهتمامُ الفرد بغيره من الناس فهو يُحبّهُم ويَميلُ إلى مساعدتهم. ويتميَّز الأشخاص الذين تسود عندهم هذه القيمة بالعطف والحنان وخدمة الغير.

(٥) القيمة السياسيّة: ويُقصَدُ بها اهتمامُ الفرد بالنشاط السياسيّ والعمل في مجاله وحلّ مشكلات الجماهير. ويتميَّزُ من لديهم هذه القيمةُ بالقيادةِ في نواحي الحياة المختلفة.

(٦) القيمة الدينيّة: ويُقصَدُ بها اهتمامُ الفرد وميلُهُ إلى معرفة ما وراء العالَمِ الظاهريّ مثل الرغبة في معرفة أصل الإنسان ومصيره، ويتميّز الأشخاص الذين تسود عندهم هذه القيمة باتّباع تعاليم الدين في كلّ النواحي.

ثمّ قال في ص١٣٣ -:

(ب) مقياس القيم الفارق:

* وصف المقياس: تقوم فكرة المقياس على تصنيف القيم إلى نوعين من القيم أولاهما: القيم التقليديّة أو الأصليّة، وثانيهما: القيم المنبثقة أو العصريّة. ويضمُّ كلُّ نوعٍ من هذه القيم أربعَ تصنيفاتٍ كالتالي:-

(١) أخلاقيّات النجاح في العمل (قيمة تقليديّة) ويُقابلها الاستمتاعُ بالصحبة والأصدقاء (قيمة عصريّة):

ويُقصَدُ بها أنَّ الفردَ الذي يِعلي من قيم النجاح في العمل يرى أنّ

من واجبه أن يحرز مركزاً أعلى ممّا حققه والده، وأن يعمل ساعات طويلة دون تسلية، وأن يعمل باجتهاد في معظم الأشياء ويشعر بارتياح إن كان من أوائل الطلبة، وأن يستمرَّ في العمل حتى ينتهيَ وأن يكون طموحاً جداً. وكلّما ارتفعت الدرجة في هذا الجانب (قيم النجاح في العمل) كلّما انخفضت في القيم المتصلة بالاستمتاع مع الأصدقاء.

(٢) الاهتمام بالمستقبل (قيمة تقليديّة) مقابل الاستمتاع بالحاضر (قيمة عصريّة):

تقلّ قيمة الاستمتاع بالحاضر عند صاحب القيم التقليديّة من أجل المستقبل وينكر إشباع الحاجات الحاضرة وإرتضاءها لتحقيق إشباعاتٍ أعظمَ في المستقبل فينبغي على الفرد الشعور بأنّ المستقبل مليء بالفرص له، وأن يدّخر أكبر قدر من المال وأن يكسب المعارف من المعاهد التعليميّة لفائدتها في المستقبل.

(٣) إستقلال الذات (قيمة تقليديّة) مقابل مسايرة الآخرين (قيمة عصريّة):

يُقصَدُ بها أنّ الفردَ الذي يكون صاحبَ قِيَمَ تقليديّة فإنّه يعمل باجتهادٍ أكثرَ من معظم أقرانه ويعمل أشياءَ خارجةً عن المألوف، وأن تكونَ له آراؤه في السياسة والدين ويستمتع بالقيام بكثير من الأعمال بمفرده وبقول ما يعتقد أنه صواب عن الأشياء، وتكونَ له آراؤه الراسخة عن السلوك السليم ويعملَ الأشياء دون الاهتمام بما قد يراه الآخرون وينفقَ أكبرَ قدرٍ يستطيعه من الوقت في العمل مستقلّاً عن الآخرين، ويشعرَ أنّ من الصوابِ أن يكون طَمُوحاً جدّاً.

(٤) التشدّد في الخُلُق والدين (قيمة تقليديّة) مقابل النسبيّة والتساهل (قيمة عصريّة):

يُقصَدُ بها أنّ الفردَ الذي يكون صاحبَ قِيَم تقليديّة يشعر أنّ تحمّل الألم أمر هامّ بالنسبة له بمضيِّ الزمن كما يشعر أنّ من الواجب أن يكونَ له معتقدات قويّة عمّا هو صواب، وما هو خطأ ويشعر أنّ أهمَّ شيءٍ في الحياة أن يكافح من أجل رضا اللّه أو أن تكونَ معتقداتُهُ عن الصواب والخطأ بالغةَ الأهميّة ويكونَ قادراً على حلّ المشكلات الصعبة ويشعرُ أن الاحترام أهمُّ شيءٍ في الحياة كما يشعرُ أنّ العقابَ البدنيَّ من الحاجات الضروريّة اليوم، ويعملُ أشياءَ بإتقان دون أن يكون خبيراً في أيّ شيء.

وقد أعدَّ هذا المقياس في الأصل برنس وتمَّ نقلُهُ إلى اللغة العربيّة. (جابر عبد الحميد جابر، ١٩٧٧).

ثم قال في (ص١٣٦ - ١٤٠):

(٣) الإجراءات:

تمَّ تطبيق اختبار القيم من إعداد ألبورت وفرنون ولندزي ومقياس القيم الفارق من إعداد برنس على مجموعتين من الطلبة والطالبات بجامعة الأزهر، حيث تكوّنت المجموعة الأولى من ٦٤ طالباً بالفرقة الرابعة (شعبة الدراسات الإسلاميّة) بكلية التربية -جامعة الأزهر والثانية من ٥٨ طالبةً بالفرقة الرابعة (شعبة علم النفس) بكلية الدراسات الإنسانيّة- جامعة الأزهر. وبعد تطبيق الأداتين تمّ تصحيحُ الاستجاباتِ على اختبار القيم من إعداد البورت وزملائه بناءً على مفتاح التصحيح الذي حدّده ألبورت وزملاؤه (عطية هنا ١٩٥٩)

وأيضاً تَمَّ تصحيحُ استجابات مقياس القيم الفارق بناءً على مفتاح التصحيح[1] الذي حدّده برنس (جابر عبد الحميد جابر ١٩٧٧). وقد استغرق تطبيقُ الأداتينِ حوالي ٧٠ دقيقةً، وتم استخدام الأساليب الإحصائية التالية لمعالجة النتائج: المتوسط الحسابي، والانحراف المعياري واختبار «ت» لإيجاد الفروق بين الجنسين في القيم.

نتائج البحث:

(أ) نتائج الفرض الأوّل:

يشير شكل (١) إلى المتوسطات الحسابية لاختبار القيم من إعداد البورت وزملائه لعينة الذكور حيث بلغت ما يلي: (٤٣,٢٤) للقيمة النظرية، (٤٠,٥٢) للقيمة الاقتصادية، (٣٣,٦٨) للقيمة الجمالية، (٣٨,٥٩) للقيمة الاجتماعيّة، (٤٤,٣٢) للقيمة السياسية، (٤٦,٨٩) للقيمة[2]. ومن ثمّ يتضح أنّ النسقَ القيميَّ لعينة الذكور يتّخذُ شكلًا هرميّاً من القيمة الأعظمِ أهميةً إلى القيمة الأقلِّ أهميةً على النحو التالي:

(١) جاء في هامش الكتاب ما يلي: «تدلّ الدرجة المرتفعة على المقياس على اختيار المفحوص للقيم التقليديّة بينما تدلّ الدرجة المنخفضة على المقياس على اختيار المفحوص للقيم العصريّة».

(٢) يظهرُ: أنّه سقطت كلمة (الدينيّة) في الطبعة.

شكل (١)

النسق القيمي لدى الجنسين في اختبار القيم

لـ«ألبورت» و«فرنون» و«لندزي»

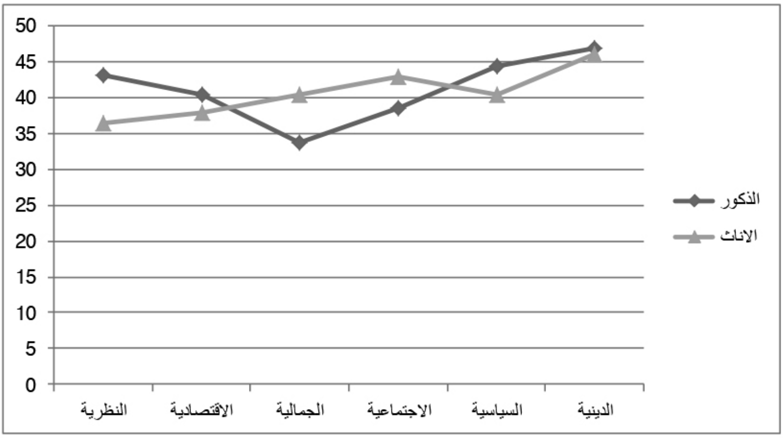

الدينية، السياسية، النظرية، الاقتصادية، الاجتماعيّة، الجمالية على الترتيب. بالإضافة إلى ذلك، بلغت المتوسطات الحسابية للقيم الست[1] لعيِّنة الإناث على النحو التالي: (٣٦,٥٦) للقيمة النظرية، (٣٧,٨٩) للقيمة الإقتصادية، (٤٠ , ٤٢) للقيمة الجمالية، (٤٢ , ٨٨) للقيمة الاجتماعيّة، (٤٠ , ٤٥) للقيمة السياسية، (٤٥ , ٩٩) للقيمة الدينية، على الترتيب.

وعليه ينتظم النسق القيمي لعيِّنة الإناث على النحو التالي من القيمة الأكثر إلى الأدنى أهميّةً: الدينية، الاجتماعيّة، السياسية، الجمالية، الاقتصادية، النظرية على الترتيب.

(١) لم أجدها واضحةً في الطبعة فقد كانت الكتابة بلا نقاط، فاحتملت ما تراه.

شكل (٢)

النسق القيمي لدى الجنسين

في قياس القيم[(١)]

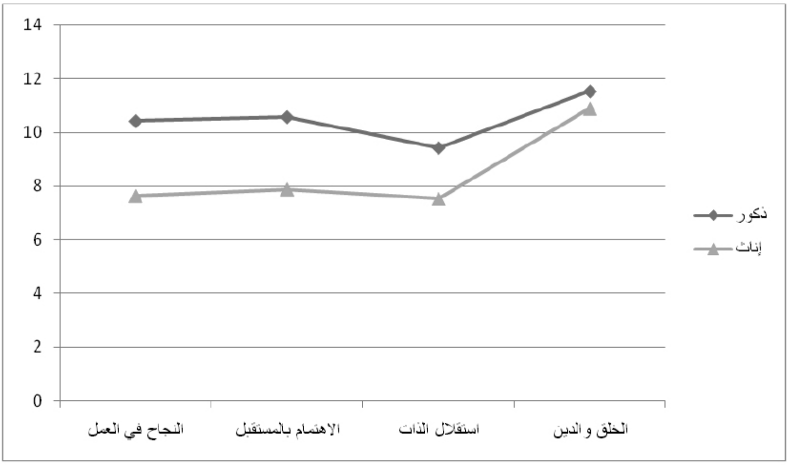

ويتّضح من شكل (٢) المتوسطات الحسابية لمقياس القيم الفارق لعيّنة الذكور، حيث بلغت كما يلي: (١٠,٤٢) لقيمة أخلاقيات النجاح في العمل، (١٠,٥٧) لقيمة الاهتمام بالمستقبل، (٩,٤٢)

(١) إعتمدنا في الرسم البياني على ما جاء لاحقاً من التوضيح تحريراً، إلاّ أنّنا وجدنا جملة من الأخطاء المطبعيّة وهي: أولاً: عدم وجود بيان تحريري للمتوسط الحسابي لعيِّنة الإناث فيما يتعلق بالاهتمام بالمستقبل.
ثانياً: عند رجوعنا إلى الرسم البيانيّ وجدنا وجود فارق ملحوظ بين ما تقرّر تحريراً، وبين ما وُجد في الرسم البياني، ويمكننا أن نوضحه ملخّصاً بحسب ما تقرّر في الرسم البياني بالتسجيل التقريبي الآتي: المتوسّطات الحسابية لمقياس الفارق لعيِّنة الذكور: (١١,٨٦ لقيمة النجاح في العمل)، (١٢,٠٥ لقيمة الاهتمام بالمستقبل)، (١٠,٦٥ لقيمة استقلال الذات)، (١٣,٩٠ لقيمة الخلق والدين)، وأمّا المتوسطات الحسابية لمقياس الفارق لعيِّنة الإناث فقد كان الاختلاف في التالي: (١٢,٦٥ لقيمة الخلق والدين).
حيث يتّضح وجود اختلاف بين ما تقرّر تحريرياً وبين الرسم البياني. هذا للأمانة، وهو لا يمسّ بما نريده من البحث.

لقيمة استقلال الذات، (٥٣ , ١١) لقيمة التشدّد في الخلق والدين على الترتيب. ويتّخذ النسق القيمي لعيِّنة الذكور الشكل الهرميّ التالي من القيمة الأكثر إلى الأدنى تفضيلاً: قيمة التشدّد في الخلق والدين، قيمة الاهتمام بالمستقبل، قيمة أخلاقيّات النجاح في العمل وقيمة استقلال الذات، على الترتيب. في حين بلغت المتوسّطات الحسابيّة لعيِّنة الإناث على النحو التالي: (٦٧ , ٧) لقيمة أخلاقيّات النجاح في العمل، لقيمة الاهتمام بالمستقبل، (٥٣ , ٧) لقيمة استقلال الذات، (٨٩ , ١٠) لقيمة التشدّد في الخلق والدين، على الترتيب. وعليه ينتظم النسق القيمي لعيِّنة الإناث على النحو التالي من القيمة الأكثر إلى الأدنى أهمية: قيمة التشدّد في الخلق والدين، قيمة الاهتمام بالمستقبل، قيمة النجاح في العمل، وقيمة استقلال الذات على الترتيب».

تسجيل ملاحظة مهمّة:

إنّ الملاحَظَ فيما نقلنا من كتاب سيكولوجيّة الفروق بين الجنسين وجودُ فروقات بيِّنة وواضحة بين الجنسين، قد كانت حصيلةُ الدراسات والبحوث اعتماداً على المقاييس العالميّة، ولو أنّ مثل هذه الدراسات انصبَّت لفهم ما جاء في الدستور الإلهيّ الشريف لخرجنا بنتائجَ مذهلة.

والآن لا يَسَعُنا سوى أن نسجّل هنا ملاحظة مهمّة وهي أَنَّهُ:

سيأتينا لاحقاً ما جاء في القرآن الكريم فيما يتعلّق ببعض المفردات التي استُشكل عليها من قِبَل البعض، ففي هذه الدراسة الأكاديميّة المعروفة يوجد الجواب الكافي. وهنا نلفت انتباه القارئ إلى تسجيل هذه الملاحظة المهمّة لمعرفة الجواب، كي يظلّ القارئ العزيز معنا بعض الشيء؛ وبمجرّد أن نصل إلى محلّه، سنشير إلى هذه الملاحظة المسجّلة إن شاء اللّه تعالى.

الفصل السادس

الحقّ الاجتماعيّ

مقدّمة مهمّة..

الأمر الذي يدعونا إلى القول: إنّ من أهمّ الفروقات التي هي بين القرآن الكريم وبين الأقوال والحكايات والدعايات التي مضمونها الخلاف مع الأُطروحة القرآنيّة والإسلاميّة كما هو الحال في الأُطروحات الوضعيّة، هو:

أنّ الأقوالَ السائدةَ بين الناس قديماً وحديثاً لم تكن معتمِدَةً على التجارب الموضوعيّة والدراسات الدقيقة، بحيث تجعل المرءَ مطمئنّاً إلى نتائجِها، وإلى مقرّراتِها، بل نلاحظ عليها أنها رهينةُ الأهواءِ الرجاليّةِ، والشهواتِ الحيوانيّةِ، والأغراضِ الشيطانيّةِ، وتفتقرُ إلى الموضوعيّةِ العلميّةِ الدقيقة.

ولكن عندما نأتي إلى القرآن الكريم، فإنّه لا يتحدّث من منطلق كونه واقفاً على حقيقة الإنسان بحكم اتّحاد المصدر لهما وهو اللّه تبارك وتعالى فقط، بل -يمكننا أن نقول أيضاً إضافةً إلى هذه الحقيقة- بأنّه يعتمد المنهج التجريبيّ الذي عاشته البشريّة عبر القرون السالفة، بدءاً من أوّل ظهورها إلى تاريخ نزول آياته وسوره المباركة.

فإنّ ما تحدّث عنه القرآن الكريم، وما بيَّنه من الأحكام والمقرّرات، لأجل الوصول إلى السعادة المطلقة، وتحقيق الحضارة الإنسانيّة، كان أيضاً استناداً على الاختبارات الميدانيّة الواسعة التي شملت الإنسان بكل طبقاته التي عاشها في المجتمعات العديدة المختلفة، وفي مختلف الأمكنة والأزمنة والأوضاع والنفسيّات. ومن يريد أن يعارض القرآن الكريم حتّى في هذا المستوى الميدانيّ، فإنّه غيرُ ممنوعٍ من أصل المعارضة، وإنَّما هو مسموحٌ له كما صرَّح بذلك القرآنُ الكريم في أكثر آياته وسوره، ولكن لتكن المعارضة بناءً على الأسس العلميّة، والمنهجيّة، وعلى الأصول العقليّة المتينة. وأمّا أن تكون المعارضةُ مهاتراتٍ وادّعاءاتٍ وجدليّاتٍ، فإنّ هذا يعني أنّ الخصم قد حكم على نفسه بنفسه بالإفلاس الفكريّ والثقافيّ، وأنّ سبيله إلى الموت البرهانيّ، وإنْ كان هذا الخصم متخماً بعلوم عديدة.

لذا أقولها صراحةً: فلتُعْطَ للدراساتِ العلميّةِ حريّةُ الانطلاق، وَلْتُتَدارَسْ المضامينُ القرآنيّةُ ميدانيّاً وبموضوعيّة مطلقة، وبإنصافٍ حقيقيٍّ أصيل، فإنّي لعلَى يقين من النتائج التي سوف تؤول إليها، لما أعرفه بمعرفتي المتواضعة عن حال الإنسان الرجل والمرأة، وبما اتّضح لي من القراءات حول المجتمع وتكوينه وعمله قديماً وحديثاً؛ فإنّ النتائج التي سوف تنتهي إليها ستكون عين النتائج التي انتهت إليها الآيات والسور القرآنيّة.

الاختلاف والتوزيع العادل في الحقّ الاجتماعيّ

إنّ أهمّ القضايا التي تُبحث اليوم هي قضية الحقوق، ولم يقتصرِ البحثُ على مستوى الحقِّ الماديِّ فقط، بل تعدّاه ليشمل حقّ العمل،

وحقّ المشاركة في المحافل السياسيّة، وحقّ القرار، وحقّ تقرير المصير، وهكذا..

فمن هنا يرد التساؤل الآتي: هل ينبغي أن يكون الرجل والمرأة متساويَينِ في كلّ شيء، أم لا؟!.

وهنا يرد تساؤل آخر أيضاً مفاده: أنّه ومن خلال السرد السريع والمختصر لطبيعة الفروقات التكوينيّة بين الرجل والمرأة، وإذا كان الاختلاف أمراً لا مناصَ منه ومن واقعيّته، فهل يؤثِّرُ ذلك في توزيع الحقوق الاجتماعيّة أم لا؟

التمهيد:

لا بدّ قبل البدء في وضع اللّمسات الأساسيّة منْ أنْ نقفَ على المورد الذي يكون منشأً لانتزاع الحقوق للناس، فإنّنا نلاحظُ وجودَ فجوةٍ بين الأمرين المذكورين:

الأمر الأوّل: وجود الاختلاف الخَلْقي بين الرجل والمرأة.

الأمر الثاني: توزيع الحقوق الاجتماعيّة بين الرجل والمرأة كفردين من أفراد المجتمع.

هل كَوْنُ هذا الإنسان رجلاً أو كونُ ذاك الإنسان امرأةً، كافٍ في تحديد كيفيَّة توزيع الحقوق الاجتماعيّة بين الأفراد، وبشكلٍ متساوٍ -أي بلحاظ ما بين الجنسين من اشتراك واتّحاد في كونهما إنساناً (وهو الاتّحاد الخَلْقيّ)- أم لا -بل لا بدّ أن يكون بلحاظ الاختلاف الطبيعيّ الواقعيّ بين الجنسين-؟.

الجواب: أنَّ الاختلاف الخَلْقِيَّ لا يُشكّل مورداً أو منبعاً للحقوق

ذاتاً، وهذا الأمر ممّا يتسالم عليه كلّ الناس، وتتوافق عليه الآيات القرآنيّة الكريمة، فلو كان الأمر كذلك للزم تساوي الرئيس مع المرؤوس، والطفل مع الكبير، والعاقل مع الجاهل، والمتعلّم مع الأُمِّيّ. وعلى هذا الأساس يأتي الكلام حول توزيع الحقوق.

إذن علامَ يبتني مبدأ التوزيع للحقوق بين الأفراد -رجالاً ونساءً- في المجتمع؟.

فلا بدّ من تخلّل أمرٍ آخرَ في البَيْنِ حتّى يكون هو الموردَ الأساسَ، والمعتمَدَ في توزيع الحقوق على الناس، وهذا الأمر الثالث الذي يأتي في الرتبة الثانية، مسبوقاً بالاختلاف الخَلْقي، وملحوقاً بتوزيع الحقوق ليس إلّا ما يفرضُهُ العمل الاجتماعيّ وأنماطُهُ من واقع يتطلّب فيه الإمكاناتِ والقابليّاتِ والقدراتِ والطاقاتِ في كلّ من الرجل والمرأة لأجل إنجازه.

ثمَّ تأتي الإشارة المهمّة في البَيْن، وهي: أنَّه هل البناء في توزيع الحقوق بين الرجل والمرأة على «**التساوي**» أم على «**العدالة**» ؟!.

فلا بدّ إذن من تنقيح مجموعة من المطالب لأجل رفع الشبهة، والإشكال.

أنماط العمل الاجتماعيّ:

سنتوجّه من هنا إلى الإجابة، ولكن بذكر مقدّمةٍ مهمّةٍ في البَيْنِ، وهي:

الإشكالية على مبدأ التساوي من أصل..

أنَّ الرجلَ والمرأةَ بداهةً ليسا كجهاز موبايل يمكنُ تغييرُ شكلِهِ

الخارجيّ، ويبقى ما بداخله على ما هو عليه، بل إنّ الفروقات بينهما كبيرةٌ جدّاً. فهل الدعوة القائمة على ضرورةِ اتّباعِ «**مساواة الرجل والمرأة**» على نحو مطلق، أم بقيد من القيود؟!.

المساواة المطلقة أم المقيّدة:

إنّ الذين قالوا بمساواة المرأة بالرجل، لا نعلم الجهة التي نادوا بها للمساواة، هل هي المساواة على المستوى «**البيولوجيّ**»، أم هي المساواة على المستوى «**الفسيولوجيّ**»، أم هي المساواة على المستوى «**السيكولوجيّ**»، أم هي المساواة على المستوى «**الاجتماعيّ**»؟.

لا أظنّ أنّ الدعوةَ تشمَلُ كلَّ ما ذكرناه، فليس من المعقول أن تكون المساواةُ على المستوى «**البيولوجيّ**»؛ لأنّ الدعوة كهذه ستؤدّي إلى الاختلال في التوازن الطبيعيّ، الأمر الذي سيؤدّي إلى فناء الرجل والمرأة، أي: انقراضهما معاً.

ولا أظنّ أن تكون المساواة على المستوى «**الفيسيولوجي**» أيضاً، لكونه سيؤدّي إلى نفس النتيجة المذكورة، إضافةً إلى أنّ هذا المستوى أمر طبيعيّ وهو مساوق للخلقة، فلا يمكن تغييبه أو تهميشه أبداً، وبالتالي فلا يمكنُ من أصلٍ أن تكون هناك مساواة على هذا المستوى أيضاً.

ولا أظنّ أن تكون المساواة على المستوى «**السيكولوجيّ**»، إذ أنّ

هذا الأمرَ ناشئٌ من أصول خَلْقية في الجملة[1]، الأمر الذي سيؤدّي إلى النتيجة المذكورة السابقة.

إذن بقيت لدينا الدعوة إلى المساواة في المجال «**الاجتماعيّ**»، وحقيقة هذا المجال هي أنّه المجال التطبيقيّ، العمليّ، والميدان التنفيذيّ، وهنا سيرد التساؤل الآتي:

هل هذه الدعوة إلى المساواة على المستوى «**الاجتماعيّ**» هي على مستوى «**جميع**» أشكال وأنماط ونشاط والسلوك الاجتماعيّ، أم «**بعضه**» ؟!.

وإذا كان هذا أو ذاك فما هي الضابطة في «**ترجيح**» هذا على ذاك؟!، وهل رُوعي في الترجيح الطبيعةُ التكوينيّةُ لكلٍّ من الرجل والمرأة أم لا؟!.

ومن هنا ينبغي التحديدُ لمعنى «**مساواة الرجل والمرأة**» الذي في الحقيقة يرجع إلى «**مساواة المرأة بالرجل**»، والذي لم يَظهر إلّا في العقود الأخيرة.

فالذين يقولون بـ«**المساواة المطلقة**» لا يستطيعون تجاوز دعواهم عن أكثر من اللسان والشفاه، وذلك لعدم واقعيّة الدعوة من أصل، لاصطدامها ومخالفتها للطبيعة التكوينيّة للمرأة؛ فإنّ طبيعةَ المرأةِ التكوينيّة بشكل عامّ تمتنع «**ذاتاً**» عن الانخراط في بعض الوظائف، كمثل حمل الأثقال والمصارعة والقتال، للعلّة التي تقدَّم ذكرها في

---

(١) لا نريد أن نخوض في المناشئ الأخرى لكونها ستخرجنا عن خطة البحث، وإلاّ فإنّ هناك أسباباً أخرى تؤثر على النفسيّة، والتي مرجعها إلى الفجوات الروحيّة التي تتخلّلها، وهي بدورها أيضاً تؤثر على الجانب الخَلْقي.

بيان الاختلاف بيولوجيّاً، وأيضاً فيسيولوجيّاً، حيث يحتاج المرء الذي يبذل جهداً جسمانيّاً إلى نسبة عالية من الهيموغلوبين الذي يزيد من كفاءة الجسم في نقل الأكسجين إلى الأعضاء المختلفة منه، الأمر الذي تفتقده المرأة بتكوينها الطبيعيّ، فأينَ يمكن لأهل «**المساواة المطلقة**» إيجادُ امرأةٍ تحمل الهيموغلوبين بنسبةٍ عاليةٍ في جسمها كما تقتضيها طبيعةُ الرجل وخلقَتُهُ؟!.

وكذا تمتنع هذه الطبيعة من عدم الإصابة بالاكتئاب في أيّام الطمث، فترى المرأة في أيّام طمثها، بل قبلَهُ، تعتريها حالاتٌ نفسيّةٌ تدفعها إلى الخمول والاكتئاب والضيق النفسيّ، الأمرُ الذي يمكنُ أن يقال إذا تولّت مهمّاتِ الفصلِ والقضاء ووافتها فترة طمثها، فمَنْ سيمنع الاكتئابَ من غزوها، أو من النيل من نفسيّتها؟!، فإن حدث هذا، فمَنْ سيضمن سلامة القرارات والأحكام التي ستصدُرُ من المرأة في هذه الحالة؟!، فالاكتئاب من الأمور التي تؤثر في القرار والحكم.

وأمّا لو قلنا بـ«**المساواة المقيّدة**» غير المطلقة، فهي ما تعمل عليه جميع الدول في العالم، ولم تتخلّف عنها أيّة دولة، حتّى الدولة التي ترفع شعار المساواة، تجدها في مقدّمة الدول التي لا تطبّق المساواة بشكل مطلق، بل بشكل مقيّد، وهو ما تنادي به الشريعة الإسلاميّة، وهو ما يدعو إليه القرآن الكريم.

إذن.. لا فرق بين الشريعة الإسلاميّة وبين الدول الكبيرة في هذا المجال، من حيث الأصل الذي هو أنّ هناكَ فروقاتٍ بين الرجل والمرأة، وأنَّ هذه الفروقاتِ تُظَلِّلُ بظلالِها على كثير من الجوانب

الحياتيّة التي يعيشها أو يتعايشُ مَعَها الأفراد والجماعات، والتي تترك بصمات التأثير على مختلف الأنشطة الاجتماعيّة بشكلٍ طبيعيّ.

وهذه الحقيقة يتفق عليها الجميع، إذ أنّ الميدان التنفيذيّ دائماً ما يحتاج إلى مهارات وقابليّات متناسبةٍ مع حجمِهِ وشدّتِهِ. وإذا نظرنا إلى هذا البُعد من أبعاد المجال الاجتماعيّ فلن نضطرّ إلى القول بأنّ هذا خلاف التساوي، بل سنقول: إنّ هذا ما يتطلّبه الواقع، ويفرض الوضع الاجتماعيّ، ما يعني أن العدالةَ الطبيعيّةَ هي التي فرضت شروطها، وضوابطها.

النتيجة المستخلصة:

النتيجة التي نستخلصها، أنّه: لا أحدَ يرى أو يعتمد «**مبدأ التساوي بين الرجل والمرأة بشكل مطلق**»، وأنّ المعتمدَ لدى الجميع هو «**مبدأ التساوي المقيَّد**» الأمر الذي يرجع في روحه وجوهره إلى «**مبدأ العدالة**» وهو أن «**يعطى كُلُّ ذي حقّ حقَّهُ**»، ووضع الحقّ في موضعه الطبيعيّ الذي يصلح له.

ولكن كيف يكون هذا التوزيع عادلاً؟، فقبل أن نوضِّحَ المطلَب، لا بأس أن نتعرّف على الأنماط الموجودة في الحيِّز الاجتماعيّ التي من خلالها سيَتَّضِحُ الكثير من المسائل، إن شاء اللّه تعالى.

إنّنا نشاهدُ المجتمعَ متنوّعَ الأنشطة والأعمال، التي تقع ضمن دائرة الحركة الاجتماعيّة، فيشارِكُ فيها الرجلُ والمرأةُ، إلّا أنَّ الملحوظَ هو أنّ هذه الأعمالَ والأنشطةَ يمكن أن تُقسم إلى ثلاثةِ أقسام:

القسم الأوّل: ما يكون قابلاً للاشتراك بين الرجل والمرأة.

القسم الثاني: ما يكون مختصّاً بالرجل دون المرأة.

القسم الثالث: ما يكون مختصّاً بالمرأة دون الرجل.

وهنا يرد تساؤل مهمّ: هل لهذا التقسيم دورٌ في توزيع الأدوار والحقوق أم لا؟!. جوابه فيما يلي إن شاء اللّه تعالى.

توزيع المهام والعدالة:

بعد أن قلنا: إنّ التعامل مع الرجل والمرأة لا يمكن أن يكون على «**مبدأ التساوي**»، بل لا بدّ من اعتماد «**مبدأ العدالة**»، نقولُ: يرد هنا التساؤل الآتي:

١ - ماذا يُقصَدُ من «**مبدأ العدالة**» ؟

٢- ما هي الموارد الاجتماعيّة التي يُطبَّقُ فيها هذا المبدأ؟، فالموارد الاجتماعيّة كثيرة جدّاً، فمنها ما يختصّ بالرجل، ومنها ما يختصُّ بالمرأة، ومنها ما يشمل كليهما، كما بينّا ذلك سابقاً في تقسيم الأنشطة الاجتماعيّة.

وهذا يعني: أنّ علينا قبل كلّ شيء أن نبحث عن المهامّ والأنشطة الاجتماعيّة التي يكثر حولها الجدل في اختصاصها بأحد الجنسين، أو شموليّتها للجنسين معاً.

تحديد المهامّ:

تُحدَّد المهام:

١ ـ تارةً بحسب رغبة المسؤول وحاجته إلى العمالة، بغضّ النظر عمّا يتمتّع به الشخص من قابليّات وطاقات.

٢- وتارةً أخرى بحسب الطاقات والقابليّات الموجودة في الشخص المقابل، فيوزّع بحسبها.

فأمّا بِحَسَبِ الأوّل، فهذه الحالات، -وإن كانت سائدةً سابقاً من العصور القديمة إلى بدايات العصر الحديث، بل وما تزالُ موجودةً في بعض البلدان في يومنا هذا؛ وذلك في القطاعات الصناعيّة بالخصوص، وفي استخدام العمالة في القطاع الزراعيّ، أو في استخدام الإنسان كرقّ يحمِلُهُ صاحبه كما يشتهيه-، فَقَدْ أثبتَتْ عدم جدارتها، بل وأثبتَتْ فقدانَها للإنسانيّة لكونِها قد تُحَمِّلُ الإنسانَ -الرجل والمرأة- عملاً أو نشاطاً اجتماعيّاً أكبرَ من قابليّته وطاقته، الأمر الذي قد يعود عليه بالضرر والمفسدة.

ونلاحظ اليوم، ولدى الكثير من المنظّمات الحقوقيّة، مطالبات دوليّةً بضرورة مراعاة الحقّ الإنسانيّ حين توزيع على الإنسان، فلا يحمل الطفلُ طاقةَ أو حجمَ ما يحملُهُ الشابُّ البالغ، ولا تُعطَ للمرأةِ مهمّات غيرِ ملائمةٍ لتركيبتها البيولوجيّة، والفيسيولوجيّة.

وأمّا على حسب الثاني، فعلوم الإدارة اليوم توجّهت إلى تنظيم العمل والنشاط الاجتماعيّ الوظيفيّ بشكل يمكنه أن يزيد من إنتاجية العمل من حيث الجودة الكيفيّة والجودة النوعيّة، بالإضافة إلى الإنتاج الكمِّيّ. ونشاهد اليوم أنّ أهّم الفروع الحديثة في عالم الإدارة يتصدّرُها التخطيطُ لتوزيع المهام والقابليّات البشريّة، وهذا ما يُعرف اليوم في علم الإدارة بـ«**إدارة الموارد البشريّة**»، التي تتضمَّن أساساً إدارةَ الطاقات والقابليّات التي يتمتّع بها الإنسان -الرجل والمرأة- وتوزيعها في الأماكن الملائمة للقابلية والطاقة في المجتمع.

وهذا ما نحن نعنيه من العدالة في توزيع المهامّ، فإنّ «**إدارة الموارد البشريّة**» في علم الإدارة تتقوّم أساساً على هذا المبدأ الإنسانيِّ المؤيَّدِ من قِبَلِ العقلِ والمنطقِ، ويوافقُهُ الوجدان، ومن يخالفها يعني أنّه سوف يقود مؤسّسته إلى انتكاسة.

ولكن لنتساءل: لو أنّنا قمنا بدراسة قابليّات شخص فوجدناها ملائمةً لأنْ يكون صاحِبُها طيّاراً بارعاً، ومن ثمَّ قمنا بوضعه مديراً على مخزن الأطعمة، فهل سيوافِقُنا التنظيمُ الإداريُّ في إدارة الموارد البشريّة أم لا؟!.

الجواب: أنّه يستحيل أن يوافِقَ على مثل هذا التوزيع؛ لأنّه يرى أنّ هذا التوزيع توزيع خاطئ جدّاً، وغير مبنيّ على أُسس علميّة، وواقعيّة، كما تتطلّبه حاجة القابليّة بالتوافق والانسجام مع النشاط والعمل الاجتماعيّ، وأنَّ هذا يُعدُّ قتلاً للإنسان من جهة، وإهداراً للوقت من جهة ثانية، وإهداراً للقابليّة من جهة ثالثة، وإرجاعاً للمجتمع إلى الخلف من جهة رابعة، ووضع المجتمع في حالة فوضى من جهة خامسة... وهكذا نجد أنّ ما يترتّب من المترتّبات السلبيّة على مثل التوزيع غير العادل كثيرٌ جدّاً.

مدخليّة انتخاب التكوين الطبيعيّ في توزيع المهام:

فإذا كانت إدارة الموارد البشريّة تعتمد على مبدأ العدالة في توزيع الطاقات والقابليات في الأماكن الملائمة لها في المؤسّسات الاجتماعيّة، فإنّا سنلاحظ أنّ مثل هذا القرار وصناعته من صناعة الإنسان نفسه، أي: أنّ التنظيم في إدارة الموارد البشريّة يستند على

إدارة الإنسان نفسه، فهو يضع المعايير والضوابط، وهو من يقوم بملاحظة الطاقات والقابليات، وهو من يقوم بتنميتها إنْ دعت الحاجة، وهو من يبحث لها عن الأماكن الملائمة، وهو من يقوم بوضعها وتوزيعها فيها.

الادارة الإلهيّة للموارد البشريّة:

ولكن.. لو أنّنا رجعنا إلى البحوث الأولى، وما انتهينا فيها من الرؤية القرآنيّة إلى الإنسان، بأنّه مخلوق من قِبَل اللّه تبارك وتعالى، ومصنوع بقدرته، وأنّ اللّه تبارك وتعالى قد وضعه في هذه الدنيا لأجل تحقيق الهدف الذي تسعى إلى تحقيقِهِ فطرتُهُ، وأنّ جميع الكائنات أيضاً مخلوقة للّه تبارك وتعالى، وأنّ اللّه تبارك وتعالى أوجد بين جميع الكائنات علاقة تلاحميّة لا تكاد أن تنفصل، فإنّنا سنجد بينها الكثير من المشتركات التي شكّلت لُحمة متّحدة منسجمة متوافقة بالرغم من الاختلاف الموجود بينها.

وبناءً على ما انتهينا من وجود اختلافات بين الرجل والمرأة بيولوجيّاً، وتشريحيّاً، وسيكولوجيّاً، وفيسيولوجيّاً، فإنّ النتيجة الطبيعيّة التي ننتهي إليها هي:

أنّ الاختلاف التكوينيّ الطبيعيّ هو ما سيدفع النظام الإنسانيّ إلى خلقِ معاملةٍ ملائمةٍ لكُلٍّ من الرجل والمرأة، معاملةٍ عادلةٍ في عالم الاجتماع. فيُعطى الرجلُ من المهامّ الاجتماعيّة بما يلائِمُ طبيعتَهُ التكوينيّة التي تُلحَظُ فيها الأبعاد البيولوجيّة والتشريحيّة والفيسيولوجيّة والسيكولوجيّة. وتُعطى المرأةُ بدورِها المهامَّ

الاجتماعيّة بما يلائِمُ طبيعتَها التكوينيّة أيضاً، وبملاحظة الأبعاد المذكورة.

وهذه العدالة هي التي تخلق أجواء التوزيع العادل بين الأفراد والمجموعات الرجاليّة والنسائيّة، وهذا يعني أنّها توزّع المهام بينهم كُلٌّ بحسب ما لديه من قابليات تكوينيّة طبيعيّة. فالمهامّ الطبيعيّة المناطة بـ«**شجرة النخيل**»، هي بحسب ما تقتضيه طبيعتها التكوينيّة، والمهامّ الطبيعيّة المناطة بـ«**شجر الصنوبر**»، هي بحسب ما تقتضيه طبيعته التكوينيّة أيضاً، وهكذا تجد الحال في سائر الكائنات، فلو حُمِّلَتْ مهامٌّ هذه على تلك، لفسد النظام الوجوديّ، ولاختلَّ التوازن الطبيعيّ -وسيأتي بعض الذّكر عن «**الصبّار**» بعد قليل إن شاء اللّه تعالى-. وهذا ما شاهدناه في صناعة الحشرات «**الهجينة**» التي لا تزال التجارب العلميّة تؤدّي فيها إلى وقوع المشكلات من حيث لا يتصوّرها الإنسان، وأكبر دليل هو ما تعيشه البشريّة اليوم من أمراض تخلقها المختبرات العلميّة، ومنها التي تتولّد من دمج الخصائص الوراثيّة لهذا الكائن بالخصائص الوراثيّة لذلك الكائن.

فإنّ مقتضى طبيعة الرجل التكوينيّة، أن يُعطى مهمّاتٍ تنسجم مع تكوينه. ومقتضى طبيعة المرأة، أن تُعطى مُهمّاتٍ تنسجم مع تكوينها، ولو بُدِّلت الأدوار لاختلَّ النظام الاجتماعيّ؛ لأنّ كُلّاً منهما قد زُوِّدَ بنظام فسيولوجيّ خاصّ، وزُوِّدَ بهيكل معيَّن، وهما يؤدّيان دورهما بما تقتضيه الحالة التكوينيّة الخاصّة لكلّ منهما، ولا يمكن تغيير الحالة إلّا إذا انقلب الرجل امرأةً، انقلاباً كليّاً هيكليّاً وبيولوجيّاً وفسيولوجيّاً،

وكذا الحال في المرأة، أي: انعدام الموضوع من أصل، فحينها سيتغيّر الحديث وسيتبدّل.

وهذا ما نقول عنه بأنّه «**إدارة الموارد البشريّة**» في «**علم الإدارة الإلهيّ**» الذي يقتضي التوزيعَ العادلَ أيضاً، وبمقتضى القابليّة والطبيعة التكوينيّة للرجل والمرأة.

مثال ذلك:

أنَّ الكونَ كُلَّهُ مركَّبٌ بهذه الكيفيّة الخاصّة، فكُلُّ مفردةٍ من مفرداتِهِ، وكلُّ موجود فيه يتمتّع بخصوصيّة تختلف عن الآخر «**كمّاً**» و«**كيفاً**»، وهذا التركيب الخاصُّ هو ما يجعله في دائرة تعامل خاصّة. فـ«**الليلُ**» له خصوصيّاتُهُ التكوينيّةُ التي يختصّ بها، و«**النهار**» له خصوصيّاته التكوينيّةُ التي يختصّ بها، وبسبب هذه الخصوصيّة التي يمتاز كلّ منهما بها، تتفاعل معهما الكائنات جميعاً. فترى النباتات في «**الليل**» تُزوِّدُ الطبيعةَ بـ«**ثاني أكسيد الكربون**»، بينما في «**النهار**» تُزوِّدها بـ«**الأكسجين**». وهذه النباتات تشعر بهذا الاختلاف بين الليل والنهار، وبناءً عليه تتغيَّر تعاملاتها مع الطبيعة، ولكن لا تستطيع النباتات أن تعكس الحال؛ وذلك لأنّ خصوصيّاتها التكوينيّة لا تسمح لها بذلك، وهذا ما أثبته «**علم النبات الفسيولوجي**»، فمن يستطيع أن يغيّر هذه التركيبة التكوينيّة للنبات، ـ ولا أتحدّث هنا عن تدخّل عامل خارجيّ كإيجاد شرط من شروط التحقّق أو إيجاد مانع يمنع من التحقّق ـ، وبالتالي يجعلها تتفاعل عكس ما عليه مقتضى حالها التكوينيّ؟!، بحيث يتغيّر النمط السلوكيّ للنبات مع بقاء حركة الليل والنهار، فهذا ما لا يمكن حدوثه مطلقاً، لكون الطبيعة التكوينيّة للوجود قد وُجدت وخُلقت هكذا.

وهناك من النباتات التي تعيش في أجواء قاحلة، في الوقت الذي لا تستطيع التكيّف مع أجواء مناخيّة أخرى، وهذا التمايز الطبيعيّ المتعلّق بالطبيعة الفسيولوجيّة للنبات هو ما يجعلها غير قادرة لأن تتحمّل أجواء مناخيّة معيّنة أو تتحمّل أجواء مناخيّة أخرى.

فمع قليل من التأمّل، ندرك تماماً أنّ هذا التمايز بين المخلوقات عامّة لا يؤهّل هذا النبات للتفاضل عن غيره من النباتات الأخرى، إذ كلّ منها يمارس دوره الملائم لطبيعته التكوينيّة، ولكلّ منها دوراً ما ليس للآخر، ليشكّل مجموع الحركة اتحاداً وانسجاماً لاستمرار الحياة.

التمييز أم التمايز في توزيع المهامّ:

إذا كانت الطبيعية التكوينية للكائنات هي من يُحدّد الوظائف الخاصّة لكلٍّ منها، وهي ما يميّز بعضها عن البعض الآخر، فإنّك لو جئت إليها وأنت تريد أن توزّع عليها مهمّاتٍ معيّنة فإنّك (لا شكّ ولا ريب) ستراعي تلكم الفروقات الموجودة بينها بحسب طبيعتها التكوينيّة، فلو أنّك أهملت مراعاة هذه الفروقات المفروضة بحسب المقتضى الطبيعيّ لها، وبدأت بتوزيع المهامّ بشكل معكوس فإنّك ستنتهي إلى نتائجَ سلبيّةٍ لا محالةَ، وهذا يعني أنَّكَ جانبتَ العدالة، ولكن مع المراعاة فإنّك لا تُعَدُّ مفضِّلاً هذه على تلك، ولا معطياً امتيازاً لهذه على تلك.

وإليك ما جاء في حقّ «**الصبّار**»، لتُدرِكَ أنَّ التمايُزَ لا يعني التفاضل، ولا يعني التمييز، وإنّما هو بحسب المعطَيَاتِ للطبيعة التكوينيّة:

«**أمّا عن شروط زراعة الصبّاريّات، فبالرغم من أنّه معروف عنها**

أنّها نباتات صحراويّة ولديها القدرة على تحمّل الظروف المناخيّة المختلفة، إلّا أنّها تحتاج إلى ظروف مناخيّة مناسبة للحفاظ على جمال أشكالها وألوانها وأعلى معدلات نموّ وتزهير لها. وبالتالي من الخطأ تصوّر إمكانيّة زراعة نباتات الصبّار تحت شمس الصيف الحارقة؛ لأنّ ذلك يؤثر سلباً على الجمال العامّ للنبات، كما أنّ هناك أنواعاً من الصبّاريّات لا تتحمّل أشعة الشمس الشديدة؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى احتراقها وموتها؛ لذلك فمن المناسب زراعة كافّة أنواع الصبّاريّات تحت قدر من التظليل خلال أشهر الصيف شديدة الحرارة، مع الحرص على أن تكون نسبة الإضاءة التي تصل إليها عالية، ويمكن للمزارع تحقيق ذلك بوضع النباتات داخل «برجولة» خشبيّة أو في مكان مغطّى بشبك السيران» (١).

فإذا كان «**الصبّار**» يتلقّى كلّ هذه العناية الخاصّة، فهذا لا يعني أنّه يتمايز عن النباتات الأخرى، أو يتفاضل عليها، كلا؛ وإنّما طبيعته التكوينيّة هي من حدَّدت له هذه الخصوصيّة، اذ لولاها لاحترق ومات.

القرآن الكريم وإدارة توزيع المهام:

القرآن الكريم -كما أسلفنا الحديث عنه وباختصار- يرى أنّ الرجل والمرأة قد خلقهما اللّه تبارك وتعالى كسائر الكائنات يتمتّعان بقابليّات خاصّة بكلّ منهما، في عين امتلاكهما العناصر المشتركة التي يحتاجانها في مضمار السباق الوجوديّ.

وإنّ هذه القابليّات الخاصّة هي التي تحدّد المهمّات التي ينبغي

(١) http://www.islamonline.net موقع «إسلام أون لاين»، الصبار جمال ودواء، خالد يونس.

إناطة كلّ واحد منهما فيها، الأمر الذي يؤدّي بنا لأنْ نقول: بأنّ القرآن الكريم قد اعتمد «إدارة الموارد البشريّة» وبشكل فعّال على المستويين:

المستوى الأوّل: تكويناً.

المستوى الثاني: تشريعاً.

فـ«**التكوينيّ**» ما لاحظناه من خلال عمليّة الخلقة، وأمّا «**التشريعيّ**» فمن خلال وضع كلّ إنسان بما يمتلكه من قابليّات في مكانه الملائم له، وإعطائه من المهامّ التنظيميّة الإداريّة، بحسب متطلّباته التكوينيّة الخلقيّة، بما يستحقه وبما يتلائمَ حالتَهُ ووضعه.

فبلحاظ هذه المنظومة القرآنيّة التي نجدها تتشكّل هيكليّتها الإداريّة للوجود والعالم لأجل إيصال الإنسان -الرجل والمرأة- إلى الهدف الذي خُلقا لأجله، نجد تمام الانسجام بين الطرح الأوّليّ القرآنيّ، والذي عبّرنا عنه بالأصل الأوّليّ الذي هو أصالة التساوي في رؤية القرآن الكريم، وبين الأحكام التشريعيّة التي اعتقد البعض منها أنّها تدلّ على الأفضلية، فإنّ تلكم الأحكام لا تدلّ على الأفضلية أبداً وإنّما تدلّ على دقّة توزيع المهام الحياتيّة على كلّ من الرجل والمرأة، وهذا يدخل تحت إدارة الموارد البشريّة، كما تقدَّم الحديث عنه قبل قليل وباختصار، وكلّ ذلك بحسب ما تقتضيها طبيعة التكوين الذي عليه كلّ من الرجل والمرأة.

وبناءً على ما تقدّم، يتّضح لنا أنّنا إذا فكّرنا في توزيع الحقوق على الرجل والمرأة فلا بدّ من تمريرها وإخضاعها أوّلاً على إدارة الموارد البشريّة، حتّى نعلم: أنَّ التوزيعَ وفقاً للمهمَّةِ والعمل والوظيفة الفلانيّة من حقّه أو أنّه إجحاف في حقّه، وعدم إنصافه!.

الخاتمة

الوقوف على المسائل التشريعيّة

الشبهات الموجّهة إلى الإسلام والقرآن:

لو نظرنا إلى الإشكالات والشبهات الموجّهة إلى الإسلام، ودستوره القرآن الكريم، فيما يختصّ بموضوع المرأة بالخصوص، سنجد أنّها لم تنظر إلى الرؤية الأوّليّة للقرآن الكريم إلى الرجل والمرأة، من جهة، ولم تنظر إلى رؤية القرآن الكريم إلى الحقوق المتعلّقة بالإنسان الرجل والمرأة بلحاظ الخلقة، وبلحاظِ المهام من جهة أخرى، ولم تنظر إلى الرؤية الوجودية للقرآن الكريم، من جهة ثالثةٍ. وهذا قد أوقع المستشكل في عدم القدرة على فهم نصوص القرآن الكريم، ومعرفة آياته وسوره المباركة.

ولكن لنقف ولو إجمالاً، واختصاراً على بعض الشبهات التي وردت على الأحكام المتعلّقة بالمرأة بالخصوص، الواردة في القرآن الكريم، والدين الإسلاميّ:

منشأ الإشكال والتساؤل

يمكننا أن نحدّد المنشأ في وقوع أولئك في شبهات وأخطاء حول الإسلام والقرآن في الآتي:

١ـ التعدّديّة في الزواج. سورة النساء ٤.

٢ـ توزيع الإرث. سورة النساء ١١.

٣ـ قيمومة الرجل على المرأة. سورة النساء ٣٤.

٤ـوضع الطلاق بيد الرجل.

٥ـ وضع الجهاد عن المرأة.

٦ـ حجاب المرأة.

٧ـ عدم الوصول إلى منصب القضاء.

٨ـ الشهادة في الطلاق.

٩ـ الشهادة في رؤية الهلال.

١٠ـ إشهاد امرأتين مقابل رجل واحد.

١١ـ سنّ التكليف عند المرأة يختلف عن سنّ التكليف عند الرجل.

١٢ـ الاختلاط بين الرجل والمرأة.

ومن هنا نشأت رؤىً حول المرأة، وكثيرٌ منها مغايِرٌ لرؤية الإسلام بشكل كبير، ومنها ما تلتقي بها في بعض الأفكار والمفاهيم.

ولكن بلحاظ ما تقدَّم من بيان الفروقات بين الرجل والمرأة، ومع تحليل هذه العناوين وفق معطيات تلكم النتائج العلميّة، سنجد أنّ التساؤلاتِ لم تكن مبنيّةً على أُسسٍ علميّةٍ منطقيّةٍ دقيقة، وإنّما نظرت إلى العناوين القرآنيّة من خلال ملاحظات خاصّة، ولا يهمّنا هنا

مناشئُها، إذ يكفينا فيها عدم دقّتها، وعدم ثباتِها أمام الدليل العلميّ، فضلاً عن البرهان العقليّ.

ولو أنّنا لاحظنا العناوين المطروحة سنجد كلّ منها يندرج تحت سقف من أسقف العناوين العلميّة التي أثبِتَتْ من خلالِها حقيقةُ الفروقات بين الرجل والمرأة.

فإليك الآن التصنيفَ وبشكل مختصر وكإشارات:

١- **التعدّديّة في الزواج**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً، وسيكولوجيّاً وفيسيولوجيّاً.

٢- **توزيع الإرث**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً وسيكولوجيّاً.

٣- **قيمومة الرجل على المرأة**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً، وسيكولوجيّاً وفيسيولوجيّاً.

٤- **وضع الطلاق بيد الرجل**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً، وفيسيولوجيّاً وسيكولوجيّاً.

٥- **وضع الجهاد عن المرأة**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً، وفيسيولوجيّاً وسيكولوجيّاً.

٦- **حجاب المرأة**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً وسيكولوجيّاً.

٧- **عدم إمكانية الوصول إلى منصب القضاء**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً، وفيسيولوجيّاً وسيكولوجيّاً.

٨- **الشهادة في الطلاق**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: فيسيولوجيّاً وسيكولوجيّاً.

٩- **الشهادة في رؤية الهلال**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً وفيسيولوجيّاً.

١٠- **إشهاد امرأتين مقابلَ رجل واحد**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: سيكولوجيّاً، وفيسيولوجيّاً.

١١- **سنّ التكليف عند المرأة يختلف عن سنّ التكليف عند الرجل**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: بيولوجيّاً، وفيسيولوجيّاً وسيكولوجيّاً.

١٢- **الاختلاط بين الرجل والمرأة**... ونلاحظ فيه مقتضى الطبيعة التكوينيّة: الفيسيولوجيّ، والسيكولوجيّ.

ملاحظة عامّة حول الإشكالات الواردة:

إنَّ الآياتِ الشريفةَ تحمل نظريّة توزيع المهام، ولكن البعض أساء فهمها لسبب ما، وخاصّة لآية القيموميّة التي فُسِّرت من خلال أعراف الناس، وعاداتهم، ولا من خلال موقعها في سلسلة الآيات القرآنيّة، ومن خلال ترابطها بكلّ مفاهيمه. نعم، إذا أخذنا الآية بعيداً عن القرآن وسُوَره رُبَّما انتهينا إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها المستشكلون، إلّا أنّ الأمر لا يجري بهذه الطريقة، نظراً إلى كون القرآن كتاباً متَّحدَةً أجزاؤُهُ، مترابطة مفاهيمه، متماسكة معانيه، فلا يمكن فصل بعضه عن بعضه الآخر. ففصل جزء عن الآخر لا يقودنا إلّا إلى نتائجَ غيرَ صحيحة، كما قادت المستشكلين إليه.

ومن المؤسف..

أوّلاً: أن نشاهد عدم الأخذ بتلك المختصّاتِ الخلقيّة والتكوينيّة الطبيعيّة في النصّ والتشريع والتقنين الوضعيّ.

ثانياً: عدم استيعاب الشريعة المقدّسة الإسلاميّة، ودستورها القرآن الكريم، وفق رؤيتها إلى العالم والوجود، وإلى المشتركات الإنسانيّة وإلى خصائصها.

ثالثاً: أنَّ عدمَ الأخذ بالخصائص التكوينيّة، للرجل والمرأة بعينِ الاعتبار، والتركيزَ فقط على المشتركات أدَّى إلى خلق حالة من عدم الاستقرار الاجتماعيّ، وبالتالي إلى اختلال النظام الاجتماعيّ، الذي ما أدّى إلّا إلى سقوط القيم والإنسانيّة.

رابعاً: إلى الآن ما تزالُ البشريَّةُ غيرَ قادرة على النظر إلى المشتركات والمختصّاتِ بعينٍ موضوعيّةٍ، منصفة، واعية، وسببُ عدمِ قدرتِها هو تدخّل الأهواء والجهل، الأمر الذي لا يزيد الطين إلّا بلَّة.

خاتمة البحث:

وإلى هنا نكتفي بهذا المقدار من البحث على أمل أن تتطوَّر البحوثُ لاحقاً بإذن اللّه تعالى، وتنظرَ إلى الإنسان، الرجل والمرأة، بنظرة موضوعيّة بحتة، ليكون التشريع والتقنين في عالم الاجتماع وفق متطلّبات النشأتين من جهة، ووفق ما تفرضه الطبيعة التكوينيَّة لطبيعة خلقة الرجل والمرأة من جهةٍ أخرى.

والحمد للّه ربّ العالمين، وصلَّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله وأصحابه المنتجبين.

مصادر الكتاب

- القرآن الكريم.

- مفردات غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دفتر نشر الكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ.

- الميزان في تفسير القرآن، للعلامة محمد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين، قم.

- تفسير مجمع البيان، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، منشورات مؤسسة الأعلمي، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، الطبعة: الثانية، بيروت - لبنان.

- جمال المرأة وجلالها، للشيخ جوادي آملي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، السنة: ١٩٩٤م، بيروت - لبنان.

- أسلوب الإلتفات في البلاغة القرآنيّة، للدكتور حسن طبل، دار الفكر العربي، الطبعة: سنة: ١٩٩٨م.

- سيكولوجية الفروق بين الجنسين، للدكتور رشاد علي عبد العزيز موسى، مؤسسة المختار، الطبعة: الثانية، سنة: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- مجلّة التراث الإسلامي، مجلّة فصليّة عن اتحاد الكتاب العربي/ دمشق.

- شبكة النبأ المعلوماتية الإلكترونية. الثلاثاء ١٩/ أيلول/ ٢٠٠٦م - ٢٠/ شعبان ٢٤/ ١٤٢٧هـ. www.annabaa.org

- جريدة نهضة مصر الإلكترونية، عدد ١٤/ ١/ ٢٠٠٤م.

- http://www.islamonline.net موقع «إسلام أون لاين»، الصبّار جمال ودواء، خالد يونس.